أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها

الدكتور أحمد عباس البدوي

دار عمار

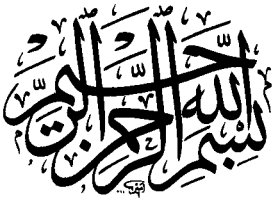
بسم الله الرحمن الرحيم

أهم خصائص

السور والآيات المكية

ومقاصدها

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٩/٣/٤٣٤)

رقم التصنيف : ١ر٢٢٦

المؤلف ومن هو في حكمه : احمد عباس البدوي

عنوان الكتاب : اهم خصائص السور والايات المكية ومقاصدها

الموضوع الرئيسي : ١ - الديانات

٢ - القران الكريم

بيانات النشر : عمان / دار عمار للنشر

* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٣٥٤/٣/١٩٩٨

دار عمار
للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآنَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه، أرسله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وأيده بالمعجزات الباهرات التي أبلغُها وأخلَدُها القرآنُ الكريم. فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء. ليلها كنهارها. فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه، ومن سلك طريقه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه دراسة في موضوع من أهم موضوعات علوم القرآن ـ تعين المسلم على فهم كتاب الله وتدبره وهي: « أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها ».

وذلك لأني وجدت أن مَنْ كتبوا في المكي والمدني ـ على كثرتهم ـ قَلَّ أن يخرجوا به عن إطار التعريف والضبط إلى التوسع في خصائصه ومقاصده. وإن حصل ذلك فبطريقة مقتضبة. حتى أن الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن »، يقول في بداية حديثه عن المكي والمدني:

« ليس من غرضنا في هذا المبحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره، وأن نحقق ما كان منها مكياً، وما كان منها مدنياً، فتلك محاولات كبيرة جديرة أن تُفرد بالتآليف[1] ». اهـ.

وبرغم قصر باعي، وقلة زادي، فقد رجوت الله تعالى أن يعينني على القيام

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ج١، ص١٨٥، ط عيسى البابي الحلبي.

بهذه المهمة الصعبة. وإن البحث في هذا المجال مهم للغاية، لأنه يتعلق بكتاب الله تبارك وتعالى.

قال الزركشي[1] في « البرهان في علوم القرآن »:

قال أبو القاسم الحسن بن محمدبن حبيب النيسابوري في كتاب: « التنبيه على فضل علوم القرآن »:

« من أشرف علوم القرآن عِلْمُ نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك. ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي. وما نزل بمكة في أهل المدينة. وما نزل بالمدينة في أهل مكة. ثم ما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي . . . الخ »[2].

ويرى الدكتور صبحي الصالح أن العلم بالمكي والمدني أحوج إلى التمحيص من أسباب النزول، لأن كل سورة إما مكية أو مدنية، بينما أسباب النزول تتعلق ببعض الآيات، لأن من القرآن ما نزل ابتداء من غير سبب.

يقول صبحي الصالح: « ولعلنا لا نرتاب إذا وضعنا العلوم القرآنية موضع الموازنة، في أن العلم بالمكي والمدني أحوجها إلى تمحيص الروايات، وتحقيق النصوص، والتحاكم إلى التاريخ الصحيح. وهو على كل حال إلى هذا أحوج من أسباب النزول. لأن العلم بتلك الأسباب يتناول ضروباً معينة من الجزئيات المتعلقة بالمناسبات الفردية والاجتماعية. ولا يتناول شيئاً من التفصيلات القرآنية الأخرى التي نزلت ابتداءً غير مبنية على أسباب. أما علم المكي والمدني فلا غنى له عن تناول القرآن كله سوراً وآيات، فكل سورة منه إما مكية أو مدنية، كما إن كل آية من القرآن معروفة الهوية واضحة السيرة. فإذا اختلطت بغير زمرتها أخضعها العلماء الثقات لمقاييسهم الدقيقة حتى قطعوا أو كادوا يقطعون أنها تنتمي إلى النوازل المكية أو المدنية. كان العلم بالمكي والمدني إذاً خليقاً بالعناية البالغة

---

(١) هو: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.

(٢) ج١، ص١٩٢، ط عيسى البابي الحلبي.

التي أُحيط بها. وجديراً أن يعد بحق منطلق العلماء، لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية. والتعرف على خطواتها الحكيمة، المتدرجة مع الأحداث والظروف، والتطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة وفي البادية والحاضرة »[1].

إنَّ دراسة المكي والمدني مفيدة جدّاً لمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمتقدم والمتأخر.

جاء في كتاب « الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه » لأبي محمد مكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات، قال وهو يتكلم على شروط ناسخ القرآن ومنسوخه:

« ومن ذلك أن تعلم أن المدني من الآي ينسخ المدني الذي نزل قبله، وينسخ المكي لأنه نزل قبل المدني. لأن الآية لا يجوز أن تنسخ ما لم ينزل بعد. والمكي نزل قبل المدني »[2]. ا هـ.

كما يفيد في معرفة سير الدعوة الإسلامية وكيف كان النبي، ﷺ، يدعو الناس، ويحاور المشركين ويرد على أسئلتهم، التي كثيراً ما كانت تخرج عن نطاق المعقول والمقبول، إلى الاستهزاء والسخرية. كما ذكر ذلك لنا الحق - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]. على حسب ما هو مبين في موضعه من هذه الدراسة[3].

---

(١) مباحث في علوم القرآن، ص ١٦٧.

(٢) ص ٩٩.

(٣) انظر المبحث الثاني من الباب الثالث.

منهج البحث في هذه الدراسة

من المعلوم أنه لم يثبت عن النبي، ﷺ، بيان أن هذه السورة مكية وتلك مدنية، لأنه لم يؤمر بذلك، ولأن الصحابة عليهم رضوان الله، لم تكن لهم حاجة في ذلك، فهم يشاهدون منازل التنزيل، وبهذه المشاهدة يدركون زمان نزول الآيات القرآنية ومكانها.

جاء في كتاب « فتح الباري في شرح صحيح البخاري » للإمام الحافظ أحمد ابن حجر: أن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قال: « والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلاّ أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلاّ أنـا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »[1].

فمعرفة ذلك لا سبيل إليها إلاّ بما ثبت عن الصحابة والتابعين. ولقد سرت في إعداد هذه الدراسة على الآتي:

أولاً: حددت الإطار العام لمفهوم المكي والمدني عند العلماء. ورغم اختلافهم في ذلك، فقد اخترت أشهر الآراء عند الجمهور، وهو اختيار الزمان لا المكان ولا الأشخاص. لأن هذا التعريف يتميز بالضبط والحصر.

ثانياً: بينت السور المكية والمدنية، ورغم الاختلافات الكثيرة في ذلك، فقد تتبعت أكثر الروايات صحة وأخذت بها. كما قمت بدراسة مفصلة لكل سورة من السور التي ورد فيها الخلاف. تبين لي من خلالها أسلوبها وموضوعاتها أو موضوعاتها التي عالجتها، وهذا يَسَّرَ لي معرفة جو السورة الذي نزلت فيه، إن كان قبل الهجرة أم بعدها.

ثالثاً: بينت الآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية بما ثبت عندي من الروايات المثبتة في كتب السنة.

---

(١) انظر فتح الباري ـ كتاب فضائل القرآن، ج٩، ص٢٧، المطبعة السلفية.

رابعاً: وضحت أهم السمات البارزة للسور والآيات المكية، أسلوباً وموضوعاً، وهذا يسر لي كثيراً كشف المقاصد التي عنيت السورة المكية بمعالجتها.

خامساً: تتبعت أهم الموضوعات التي اشتركت السور المكية في معالجتها، وذلك: كقضية الوحدانية، وقضية إثبات الرسالة، وتأييد الرسول، ﷺ، بالمعجزات، وقضية البعث والجزاء . . . الخ.

سادساً: أهم الكتب التي رجعت إليها:

إن من اهم الكتب التي رجعت إليها - بعد القرآن الكريم - كتب السنة، مثل: « صحيح البخاري[١]، وصحيح مسلم[٢]، والجامع الصحيح للترمذي[٣]، ومسند الإمام أحمد[٤]، وكتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر[٥]، وغيرها كثير ».

ومن التفاسير: « تفسير القرآن العظيم لابن كثير[٦]، وتفسير الكشاف للزمخشري[٧]، وتفسير القرطبي[٨]، الجامع لأحكام القرآن، والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ».

كما استفدت كثيراً من كتاب: « في ظلال القرآن ». للأستاذ سيد قطب وغيرهم، كما هو مبين في ثنايا هذه الدراسة.

ومن علوم القرآن - استفدت كثيراً من: « البرهان في علوم القرآن للزركشي،

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة.
(٢) هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
(٣) هو: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة.
(٤) هو: الإمام أحمد بن حنبل.
(٥) هو: أحمد بن علي بن حجر.
(٦) هو: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
(٧) هو: أبو القاسم جار اللهمحمود بن عمر الزمخشري.
(٨) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري.

والإتقان في علوم القرآن للسيوطي[1]. واستفدت من كتاب « أسباب النزول للواحدي النيسابوري[2]، وكتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ».

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة. وقد جاء على النحو التالي:

المقدمة: بينت فيها السبب الداعي لاختيار هذا الموضوع، وأهميته كما بينت فيها المنهج الذي التزمته عند كتابة الرسالة.

الباب الأول: في خصائص السور والآيات المكية وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: في المراد بالمكي والمدني عند العلماء.

المبحث الثاني: في الضوابط التي يعرف بها كل من المكي والمدني.

المبحث الثالث: في خصائص السور والآيات المكية.

المبحث الرابع:في بيان السور المتفق على مكيتها والمختلف فيها.

المبحث الخامس: في بيان الآيات المكية في السور المدنية والآيات المدنية في السور المكية.

المبحث السادس: في بيان بعض التشريعات الإجمالية في السورة المكية.

الباب الثاني: في المقصد الأول من مقاصد السور والآيات المكية وهو إثبات التوحيد وإبطال الشرك وأدلة ذلك. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في الدعوة إلى وحدانية الله تعالى.

---

(١) هو: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.

(٢) هو: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسين.

المبحث الثاني: في مناقشة المشركين في معتقداتهم الفاسدة، وإبطال الشرك بالله.

المبحث الثالث: في لفت النظر إلى آيات الله الكونية، وما فيها من البراهين والأدلة العقلية على توحيد الله.

الباب الثالث: في المقصد الثاني من مقاصد السور والآيات المكية، وهو إثبات رسالة النبي، ﷺ، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الاول: في بيان مبعث النبي، ﷺ، على فترة من الرسل.

المبحث الثاني: في إنكار المشركين أن يكون الرسول من البشر.

المبحث الثالث: في تأييد الرسول، ﷺ، بالمعجزات.

المبحث الرابع: في ضرب المثل بمنكري الرسالات السابقة للعبرة والموعظة.

الباب الرابع: في المقصد الثالث من مقاصد السور والآيات المكية وهو إثبات البعث والجزاء وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الاول: في تعريف البعث. وبيان أنه عقيدة سائر الأنبياء.

المبحث الثاني: في مناقشة منكري البعث وبيان شبههم والرد عليهم.

المبحث الثالث: في بيان إثبات الجزاء على الأعمال في الدار الآخرة.

الخاتمة: وقد بينت فيها الفائدة التي أفدتها من هذه الدراسة.

الباب الأول
في
خصائص السور والآيات المكية

المبحث الأول:

في المراد بالمكي والمدني عند العلماء

للعلماء في تعريف المكي والمدني من القرآن الكريم ثلاثة اصطلاحات. وذلك يرجع إلى اختلاف أنظار المعرفين. فمنهم من نظر إلى القرآن باعتبار مكان نزوله، ومنهم من نظر إليه باعتبار حال المخاطبين به، ومنهم من نظر إليه باعتبار زمان نزوله.

فمن عرفه باعتبار مكان نزوله عَرَّفه بقوله: إن المكي ما نزل بمكة المكرمة، والمدني ما نزل بالمدينة المنورة. ويدخل في مفهوم مكة ضواحيها، مثل منى وعرفات والحديبية. ويدخل في مفهوم المدينة ضواحيها مثل بدر وأُحد.

والملاحظ أن هذا التعريف لا يدخل تحته إلاّ ما نزل بمكة وضواحيها، والمدينة وضواحيها. أما ما نزل في غير هذه الأماكن على حسب هذا الرأي فإنه لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

وهذا التعريف غير حاصر لأنه لا يدخل فيه ما نزل على النبي، ﷺ، بالأسفار. مثل قوله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة]. فإنها نزلت في شأن من تخلف عن غزوة تبوك بتبوك. ولم يخرج مع النبي، ﷺ[1]، والمراد بالعرض القريب: الغنيمة، والسفر القاصد: أي القريب[2].

ومثل ذلك آية التيمم في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص ١٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٦٠.

وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة].

فقد أخرج البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش[1] انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء. فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعاً رأسه على فخذي قد نام فقال: حَبستِ رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، قالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول[2]، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رأس رسول الله، ﷺ، على فخذي فأقام رسول الله ﷺ على غير ماء حتى أصبح. فأنزل الله آية التيمم فتيمموا. فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته[3]. ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك[4].

فهذه الآية وأمثالها لا توصف بأنها مكية ولا مدنية في هذا التعريف. وعليه فإن التعريف غير حاصر.

ومَنْ عَرَّفه باعتبار حال المخاطبين به عرفه بقوله: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة[5]، وذلك أن القوم كانوا في جاهلية وأن الغالب عليهم هو الكفر لا الإيمان فخوطبوا بـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴿١﴾ ﴾ [النساء]. فحيثما كان الخطاب بهذه الصفة فهو خطاب لأهل مكة. وأما ما صدر بـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. فهو خطاب لأهل المدينة لأن الإيمان كان هو الغالب

---

(١) مكان بين المدينة وخيبر وبه جزم النووي، فتح الباري، ج١، ص ٤٣٢.
(٢) يعني من التقريع والتأنيب.
(٣) فتح الباري، ج٨، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢، المطبعة السلفية.
(٤) صحيح الإمام مسلم، ج١، ص ٢٧٩، طبعة دار إحياء الكتب العربية.
(٥) الإتقان في علوم القرآن، ص٩، ج١، ط المكتبة الثقافية ببيروت.

على أهلها. وذكر السيوطي في « الإتقان »: أن بعضهم قد زاد صيغة: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾. وألحقها بيا أيها الناس وأسند ذلك لأبي عبيدة في كتابه « فضائل القرآن »، قال السيوطي:

« أخرج أبو عبيدة في كتابه « فضائل القرآن » ما كان: يا أيها الناس أو يا بني آدم فهو مكي، وما كان يا أيها الذين آمنوا فهو مدني »[1].

ويؤخذ على هذا التقسيم أنه غير حاصر أيضاً إذ نجد آيات في القرآن الكريم ليس فيها يا أيها الناس ولا يا أيها الذين آمنوا. كما يؤخذ عليه أنه غير مطرد.

فسورة النساء مثلاً مدنية ومفتتحة بيا أيها الناس. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

وقال السيوطي: قال الشيخ فخر الدين الرازي في تعقيبه على هذا الرأي: « إن كان الرجوع فيه إلى النقل فمسلم. وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف إذ يجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسم جنسهم. ويؤمر من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها والازدياد منها فالخطاب في الجميع ممكن »[2]. ا هـ.

وتعقبه الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه « مناهل العرفان » حيث قال: «قال بعضهم: هذا القولُ إن أُخِذَ على إطلاقه ففيه نظر وإن أريد به الغالب فصحيح»[3]. ا هـ.

وقال الدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه « المدخل لفهم علوم القرآن»: « لكن هذا لا يفيد في شيء إذ أن التقاسيم والتعاريف مبناها على الضبط والحصر والاضطراد »[4]. قلت: وهذا ما لم يستوف في هذا التعريف فكان ناقصاً.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ،ج١، ص١٧ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن، ص٨٧.
(٣) مناهل العرفان، ح ١/ ١٩٧ .
(٤) ص ٢٢٣.

ومن نظر إليه باعتبار زمان نزوله عرفه بقوله:

إن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول، ﷺ، إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة.

والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة، ويدخل فيه ما نزل على النبي ﷺ في سفره وإن كان خارج مكة. وذلك مثل « سورة الجن »: فقد أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب. فرجعت الشياطين فقالوا: مالكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ ما حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة[1] وهو عامد إلى عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن تسمعوا له: فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴿١﴾ ﴾ [الجن].

ومثل سورة الفتح فإنها قد نزلت على رسول الله، ﷺ، عقب مُنْصرَفِهِ من الحديبية كما ذكر ذلك الإمام أحمد في « مسنده » قال: عن قتادة عن أنس بن مالك قال لما انصرف رسول الله، ﷺ، من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح]. قال المسلمون يا رسول الله هنيئاً لك ما أعطاك الله. فما لنا ؟ فنزلت: ﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح].

---

(١) مكان قرب الطائف.

وفي « صحيح البخاري » بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله، ﷺ، كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ. ثم سأله فلم يجبه. ثم سأله فلم يجبه. فقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر نَزَرْتُ رسول الله ﷺ، أي ألححت عليه ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركتُ بعيري، ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن. فما نشبت ـ أي لم أتعلق بشيء غير ما ذكرت ـ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. فجئت رسول الله، ﷺ، فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح].

يقول ابن حجر: « قوله: عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله، ﷺ، كان في سفر ـ هذا السياق صورته الإرسالُ لأن أسلم لم يدرك زمان هذه القصة. لكنه محمول على أنه سمعه من عمر. بدليل قوله في أثنائه: قال عمر فحركت بعيري. وإلى ذلك أشار القابسي ـ وجاء في رواية الطبراني من طريق عبد الرحمن بن أبي علقمة عن ابن مسعود أن السفر المذكور هو عمرة الحديبية[1]. ا.هـ .

وكذلك آية سورة المائدة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة]. رغم أنها نزلت بعرفة في حجة الوداع.

فقد أخرج البخاري بسنده عن طارق بن شهاب: « قالت اليهود لعمر: إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت. وأين رسول الله، ﷺ، حيث أنزلت يوم عرفة وإنا والله بعرفة. قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا. ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾. وقد جاء الجزم بأن ذلك كان يوم الجمعة من رواية قيس بن أسلم.

الموازنة بين الآراء الثلاثة:

بعد أن عرضنا هذه الآراء الثلاثة في تعريف ما المكي، وما المدني من القرآن الكريم عند العلماء لابد من الموازنة بينها، وترجيح ما يمكن ترجيحه والميل

---

(١) فتح الباري، ٨، ص ٢٨٥ ـ ٣٨٥ .

إليه. وعندما ننظر إلى هذه الآراء نجد أن الأول منها لوحظ فيه مكان النزول فجعل المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة ولا وسط بينهما.

ولقد ثبت كما بينا ـ أن هناك آيات قد نزلت خارج مكة، وأخرى قد نزلت خارج المدينة، وعند أصحاب هذا الرأي فإنه لا يطلق عليه مكي ولا مدني. وعليه فإن هذا التعريف غير حاصر لأنه كما قال السيوطي يثبت الواسطة[1] فما نزل بالأسفار لا يسمى مكيًّا ولا مدنيًّا. وعدم الحصر عيب يخل بالتعريف.

أما الرأي الثاني ـ على حسب ما جاء في الترتيب ـ فهو القائل: « بأن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة »؛ وهذا التعريف كذلك غير حاصر. فهناك آيات كثيرة في القرآن ليس فيها ياأيها الناس ـ ولا يا أيها الذين آمنوا. كما أنه غير مطرد، إذ أن سورة البقرة وهي مدنية النزول نجد فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة].

وكذلك افتتاحية سورة النساء ـ والسورة كلها مدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء].

وعلى ذلك فإنه غير حاصر ولا مطرد وذلك عيب يخل بالتعريف كما تقدم.

أما الاصطلاح الثالث وهو المشهور بين العلماء فهو القائل: « إن المكي ما نزل قبل هجرة النبي، ﷺ، إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة »[2]. فإن هذا المصطلح ضابط لأفراده، وحاصر لها لأنه اعتبر الزمان لا المكان ظرفاً للنزول[3].

قال الدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه «المدخل لفهم القرآن الكريم»: «هذا التقسيم حاصر وضابط ومطرد. إذ تنعدم على القول به الواسطة. ولا يرد عليه

---

(١) الإتقان ،ج١، ص٩ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن،ج١، ص٩ .
(٣) والنزول فعل من الأفعال ودلالة الفعل على الزمان وضعية.

ما ينقضه فلذا كان الراجح المقبول »[1]. ا.هـ .

والدكتور صبحي الصالح في كتابه « مباحث في علوم القرآن » يميل إلى هذا المصطلح الزماني ويقول:

« لما كان موضوع المكي والمدني ذا صلة وثيقة بالتاريخ كان اختيارنا للاصطلاح الزماني بدلاً من اعتبارنا بالمكان أو الأشخاص كما رجحه كثير من العلماء ومال إليه »، ثم ساق أمثلة يؤيد بها ترجيح هذا الرأي فقال:

« قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. نزل بمكة إذا التمسنا المكان، ويوم الفتح بعد الهجرة إذا تحرينا المكان. والغرض منه الدعوة إلى التعارف وتذكير الإنسانية بوحدةِ أصلها إذا عنينا الموضوع. وهو إن راعينا الأشخاص خطاب لأهل مكة والمدينة على السواء، فما سماه العلماء مكياً على الإطلاق ولا مدنياً على الإطلاق بل أدرجوه في باب ما نزل بمكة وحكمه مدني»[2].

وأقول: إن خطاب يا أيها الناس لم يكن خطاباً لأهل مكة والمدينة فحسب، بل هو خطاب لكل الناس في مكة والمدينة وغيرهما.

هذه واحدة والثانية: إن ما تعارف عليه العلماء في قولهم: ما نزل بمكة وحكمه مدني، أو ما نزل بالمدينة وحكمه مكي، فهو كله فيما أرى يدخل في هذا التعريف، فهو إما أن يكون قبل الهجرة فمكي، أو بعدها فمدني في أي مكان نزل، هذا ما حملني على الترجيح لهذا المصطلح على المصطلحين السابقين؛ لاكتمال شروط التعريف، وهي الضبط والحصر والاضطراد، وعلى هذا المفهوم سيكون منهجي في البحث لخصائص السور والآيات المكية ومقاصدها.

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ٢٢١.

(٢) مباحث في علوم القرآن ص ١٦٨، ط دار العلم للملايين.

المبحث الثاني

في بيان الضوابط التي يتميز بها كل من المكي والمدني

للعلماء في ضبط المكي والمدني طريقان:

الطريق الأول: السماع وهو النقل الصحيح عن الصحابي أو التابعي بأن هذه الآية أو هذه السورة قد نزلت بمكة أو بالمدينة أو نزلت قبل الهجرة أو بعدها. فحيثما نجد مثل هذا القول فإنه يزيل كل لبس. ويحدد لنا المعالم الواضحة. مثال ذلك ما جاء في شأن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]. فقد جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله، ﷺ، مختف بمكة. كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾. أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن. ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾. عن أصحابك فلا تُسْمعهم، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.[1]

فهذه الرواية عن ابن عباس قد حددت مكان نزول هذه الآية الكريمة وهو مكة المكرمة.

ومثال آخر: فقد روى البخاري بسنده عن أبي ذر، رضي الله عنه: أنه كان يقسم فيها قسماً: إن هذه الآية: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج]. نزلت في حمزة وصاحبيه[2] وعتبة وصاحبيه[3] برزوا في يوم بدر[4].

---

(١) فتح الباري ،ج٨، ص٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(٢) هما عبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب.

(٣) هما شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

(٤) فتح الباري، ج٨، ص٤٤٣ .

فهذه الرواية قد حددت زمان النزول، وهو بعد هجرة النبي، ﷺ، لأن غزوة بدر حدثت في السنة الثانية الهجرية.

ومثال ثالث: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهي آية الحجاب، فقد روى البخاري بسنده عن أنسٍ رضي الله عنه. قال: بنى النبي، ﷺ، بزينب بنت جحش، بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعياً فيجيء قوم يأكلون ويخرجون. ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبيَّ الله ما أجدُ أحداً أدعوه، قال: ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي، ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتَقرَّى[1] حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة. ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي، ﷺ. فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون. وكان النبي، ﷺ، شديد الحياء فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة[2] الباب داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب[3] ». ا.هـ.

فهذه الرواية قد حددت زمان ومكان نزول هذه الآية، إذ أن زواج النبي، ﷺ، بزينب بنت جحش إنما كان بعد الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة فالآية مدنية بلا خلاف.

---

(١) فتقرى بفتح القاف وتشديد الفعل الماضي: أي تتبع الحجرات واحدة واحدة.

(٢) أسكفة الباب أي: عتبته العليا، وقد تكون السفلى.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج٨، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

وأما الطريق الثاني: فهو الضوابط الكلية التي يعرف بواسطتها أن السورة أو الآية مكية أو مدنية. وهي مبنية على الغالب والكثير.

يقول الدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه « المدخل لفهم القرآن الكريم »: «وهذه الضوابط مبناها على التتبع والاستقراء المبني على الغالب والكثير[1]». ا.هـ

وأهم هذه الضوابط: وجود « كلا » في السورة، فحيثما وجدت « كلا » فالسورة مكية. وهذه الكلمة قد ذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة وكلها في النصف الأخير من القرآن الكريم. وذلك لأن نصفه الأخير غالبه نزل بمكة. قال السيوطي في « الإتقان »: قال الدريني، رَحِمَهُ اللَّهُ:

وما نزلت « كلا » بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

ثم قال: وذلك لأن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة وأكثر أهلها جبابرة فكثرت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول[2]. اهـ.

قلت: وهذا يمكن ملاحظته من خلال الآيات التي وردت فيها «كلا» فمثلاً قوله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم]. فقد ورد في سبب نزولها ما ذكره البخاري في سنده عن مسروق: قال: سمعت خباباً قال: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقّاً لي عنده. فقال: لا أُعطيك حتى تكفر بمحمد، ﷺ، فقلت لا حتى تموت ثم تبعث. قال وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت نعم. قال: إن لي هناك مالاً وولداً فاقضيكه. فنزلت ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾[3]. ا.هـ.

---

(١) ص٢٧ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٧ .

(٣) ج٥، ص١١٨، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

قال فيه ابن جمرة في « فتح الباري »: « مفهومه أنه يكفر حينئذ. لكنه لم يرد ذلك لأن الكفر حينئذ لا يتصور. فكأنه قال لا أكفر أبداً. والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص لأنه لا يؤمن به »[1].

ويقول الأستاذ سيد قطب، رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيره «في ظلال القرآن»:

« وقولة العاص بن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث. والقرآن يعجب من أمره ويستنكر «ادعاءه» ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾، فهو يعرف ما هنالك. ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾. فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقل ﴿ كَلَّا ﴾ وهي لفظة نفي وزجر، كلا لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الرحمن عهداً. إنما هو يكفر ويسخر فالتهديد إذاً والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين الساخرين[2]. ا هـ .

فلفظة « كلا » هي لزجر هؤلاء الكفار كالعاص بن وائل وأمثاله الذين وقفوا بتعنت أمام الدعوة الإسلامية في عهدها المكي بكل ما أوتوا من قوة مال وولد. فهم قد أنكروا وحدانية الله فنسبوا له الشريك كما نسبوا له الولد. وأنكروا البعث والجزاء وأنكروا أن يكون القرآن منزلاً من عند الله وأنه أنزله على الرسول محمد، ﷺ، حسداً من عند انفسهم . . . فلو تتبعنا لفظة « كلا » لوجدناها كلها رداً على إنكارهم هذا. ولنأخذ مثالاً آخر في الرد على تعنت المشركين فقد قال الله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ . . . ﴾ [المدثر] إلى آخر الآيات.

يقول الأستاذ سيد قطب، رَحِمَهُ اللَّهُ: « ويطيل النص في وصف هذا المخلوق وما آتاه الله من آلائه قبل أن يذكر إعراضه وعناده. فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه ثم جعل له مالاً كثيراً ممدوداً، ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً، فهو منهم في أنس وعزة، ومهد له الحياة ويسرها له تيسيراً ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾[المدثر]. فهو لا يقنع بما أوتي. ولا يشكر ويكتفي - أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً ؟ كما في آخر السورة ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ

---

(١) فتح الباري، ج٨، ص٤٣٠.
(٢) ج٥، ص٤٥١ ـ ٤٥٢ .

﴿ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ [المدثر].

وهنا يردعه ردعاً عنيفاً عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد « كلا » وهي كلمة ردع وتبكيت ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾. فعاند دلائل الحق وموجبات الإيمان ووقف في وجه الدعوة وحارب رسولها وصد عنها نفسه وغيره[1] . . » ا هـ .

وهذه الكلمة مفرقة في القرآن الكريم على النحو التالي:

في سورة مريم، قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾. وفيها أيضاً: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم].

وفي سورة المؤمنون: ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

وفي سورة الشعراء: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. وفيها كذلك ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وفي سورة سبأ: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ ٱلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وفي سورة المعارج: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾. وفيها كذلك ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وفي سورة المدثر: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾. وفيها كذلك: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ ﴾. وفيها: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وفي سورة القيامة: ﴿ كَلَّا ۖ لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾. وفيها: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾، وفي السورة نفسها: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وفي سورة النبأ: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾، وفيها: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

وفي سورة عبس: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾، وفيها أيضاً: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) المصدر السابق، المجلد ٨، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .

وفي سورة الانفطار: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾.

وفي سورة المطففين: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾، وفيها كذلك: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، وفي نفس السورة: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، كذلك تجد فيها: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وفي سورة الفجر: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾. وفيها كذلك ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾.

وفي سورة العلق: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ ﴾. وفيها كذلك: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾. وفيها: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

وفي سورة ألهاكم: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾. ثم نجد قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾. وفي ذات السورة جاء قوله جل وعلا: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾.

وفي سورة الهمزة: ﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ ﴾.

ويظهر مما تقدم إن هذه اللفظة ﴿ كَلَّا ﴾ محصورة في القرآن الكريم ما بين سورتي مريم والهمزة ـ وكلها سور مكية النزول.

ومن هذه الضوابط المميزة للسور المكية ورود آية السجدة في السورة. فوجود هذه السجدة في السورة يدل على مكيتها. وبتتبعي لهذه السجدات وجدتها تبدأ بآخر سورة الأعراف وتنتهي بآخر سورة العلق، وإليك أيها القارىء الكريم بيان ذلك:

١ـ في سورة الأعراف، قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

٢ـ وفي سورة الرعد، قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

٣ـ وفي سورة النحل، قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

٤- وفي سورة الإسراء، قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

٥- وفي سورة مريم، قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾.

٦- وفي سورة الحج، قوله جل وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾.

٧- وفي سورة الحج أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٨- وفي سورة الفرقان، قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

٩- وفي سورة النمل، قوله جل وعلا: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

١٠- وفي سورة الم السجدة، قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

١١- وتجد في سورة ص، قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

١٢- وفي سورة فصلت، تجد قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

١٣- وفي سورة النجم، تجدها في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾.

١٤ـ وفي سورة الانشقاق، تجد قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾.

١٥ـ وآخر هذه السجدات في سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذه القاعدة لا تختلف في جميع السور التي وردت فيها السجدات، وقد يقول قائل: فما قولك في سورتي الرعد والحج اللتين ورد خلاف العلماء في زمان نزولهما وفيهما سجدات ؟.

ففي سورة الرعد: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

وفي سورة الحج قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾، وتجد فيها كذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أقول: نعم. إنه قد ورد خلافٌ حول سورتي الرعد والحج أهما مكيتان أم مدنيتان ؟ ولقد تتبعت الآثار المتعلقة بهما وخرجت من البحث بترجيح أنهما مكيتان حسب ما هو موجود في المبحث الرابع[1].

والملاحظ أن هذه السجدات تقع غالباً عقب ذكر نعمة من نعم الله تعالى تستوجب الشكر، جاء في تفسير ابن كثير في الجزء الثاني منه عند تفسيره لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]. وقال: إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل[2]، « كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة»:

---

(١) انظر ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) ص ٢٨٢ .

« ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال يتمون الصفوف الأوّل ويتراصون في الصف »[1]

وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود[2].

٣ـ ومن هذه الضوابط وجود حروف التهجي التي في أوائل السور ـ فكل سورة افتتحت بحرف من حروف التهجي فهي مكية واستثنوا من ذلك سورتين هما سورتا البقرة وآل عمران[3]. أما غير هاتين السورتين فكل سورة مفتتحة بهذه الحروف فهي مكية وعلى الرغم من اختلاف العلماء في المراد بهذه الأحرف من أنها اسم للسورة التي افتتحت بها، أو أنها اسم من أسماء الله تعالى، أو أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه أو غير ذلك[4]، فإني أميل إلى الرأي القائل بأنها جيء بها للتحدي والإعجاز، ذلك أن القوم الذين نزلت فيهم هذه السور كانوا ينكرون القرآن الكريم؛ وينكرون نبوة رسول الله، ﷺ، يقولون في القرآن الكريم إنه إفك مفترى ويقولون إنه أساطير الأولين كما حكى عنهم القرآن ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾ [الفرقان].

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ ﴾ [الأنفال].

قال البيضاوي[5]، رَحِمَهُ اللَّهُ: « افتتحت السورة بطائفة منها ـ أي من أحرف التهجي ـ إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه ، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز. فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس،

---

(١) صحيح مسلم، ج١، ص٣٢٢ كتاب الصلاة.

(٢) وأحكام هذا السجود مبسوطة في كتب الفقه فليرجع إليها من شاء.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص١٧ .

(٤) انظر الإتقان، ج١، ص١٧.

(٥) هو الإمام المفسر ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ.

فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد ومستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الفائق في فنه[1]. ا هـ .

إن المتأمل في هذه الافتتاحيات يلاحظ أنه يجيء بعدها ذكر القرآن مباشرة كما في قوله تعالى في سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود]. أو بطريق غير مباشر كما في سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾. ففي هذا النص الكريم الإعجاز بالإخبار بالغيب. وبعبارة أخرى الإخبار عن حوادث لم تقع وقت الإخبار عنها ثم تقع بعد ذلك كما أخبر بذلك[2]. ومما يؤيد أن المراد بها التحدي أنها لم ترد كلها في أول القرآن أو في آخره مثلاً وإنما فرقت في ثناياه لتجدد التحدي. يقول الزمخشري[3]، رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن. وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت. كما كررت قصص كثيرة.

وهذه الأحرف التي افتتحت بها هذه السور مفرقة في القرآن الكريم على النحو التالي:

في سورة الأعراف: ﴿ المٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾.

وفي سورة يونس: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾.

وفي سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾.

وفي سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ ﴾.

وفي سورة الرعد: ﴿ المٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾.

وفي سورة إبراهيم: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ﴾.

وفي سورة الحجر: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ ﴾.

---

(١) ج١، ص٤٢، طبعة مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت .

(٢) انظر ص٣٠٢ من كتاب إعجاز القرآن للباقلاني.

(٣) هو: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي.

وفي سورة مريم: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾.

وفي سورة طه: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾.

وفي سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة النمل: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١ ﴾.

وفي سورة القصص: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ ﴾.

وفي سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾.

وفي سورة لقمان: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة السجدة: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾.

وفي سورة ص: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ ﴾.

وفي سورة فصلت: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة الشورى: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾.

وفي سورة الزخرف: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ ﴾.

وفي سورة الدخان: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾.

وفي سورة الجاثية: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة الأحقاف: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

وفي سورة ق: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾.

وفي سورة القلم: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾.

٤ـ ومن الضوابط كذلك:

وجود ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. في السورة يدل على أنها مكية، والعلة في ذلك أن الناس في مكة كان يغلب عليهم الكفر فخوطبوا بها، فلما استقر الأمر في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، خوطبوا بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. لغلبة الإيمان

عليهم[1]. ولكن هذه القاعدة غير مطردة. لأننا نجد آيات مصدرة بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. في سور مدنية.

ففي سورة البقرة نجد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. وفيها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾. وبهذا النداء افتتحت سورة النساء وهي مدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾. وفيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ﴿١٧٠﴾ ﴾. وفيها كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾.

وجاء في سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

فهذه ست آيات قد وردت في ثلاث سور مدنية هي: سورة البقرة والنساء، والحجرات. أما غير هذه السور الثلاث فإن هذا النداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. ما ورد إلا في سور كلها مكية. وهي مفرقة في القرآن الكريم على النحو التالي:

ففي سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾.

وفي سورة يونس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴿٢٣﴾ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٥٧﴾ ﴾. وفيها كذلك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وفي سورة الحج: ورد هذا النداء للناس في أربعة مواضع: في افتتاحية السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾. وورد فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ ﴿٥﴾ ﴾ وفيها: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ ﴿٧٣﴾ ﴾.

وفي سورة النمل: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، الجزء الأول ص١٢.

﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

وفي سورة لقمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴿٣٣﴾﴾.

وفي سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴿٣﴾﴾. وفيها كذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾. وفي نفس السورة قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

ويظهر مما تقدم ذكره أن قولهم[1] كل سورة فيها﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. مكية لم يؤخذ على إطلاقه كما هو مبين بالتتبع والاستقراء.

٥ـ وَعُدَّ من هذه الضوابط: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾. فإنها لم ترد إلاّ في السور المكية. ولقد وردت في سورتين مكيتين هما الأعراف وسورة يس.

ففي سورة الأعراف: نجد قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴿٢٦﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴿٢٧﴾﴾. وقوله: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾. وقوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وفي سورة يس: ورد قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

ويظهر من هذه الضوابط مجتمعة أنها خَلَتْ تماماً من ذكر التشريع كأحكام القتال أو الحرب والسلم وشؤون الأسرة من زواج وطلاق وإرث . .إلخ . كما خلت من محاجة أهل الكتاب ومناقشتهم، وقصص غزوات النبي ﷺ فإن ذلك كله قد اختصت به السور والآيات المدنية.

---

(١) نفس المرجع السابق.

المبحث الثالث

في خصائص السور والآيات المكية

خصائص جمع خاصة، وهي في اللغة خلاف العامة. وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره[1]. وقال الراغب الأصفهاني: التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص تفرد بعض الشيء بما لايشاركه فيه الجملة. وذلك خلاف العموم والتعميم[2].

ولكل من السور المكية والمدنية خصائص تتفرد بها عن غيرها. والذي نرمي إليه هو بيان خصائص السور والآيات المكية. وهي نوعان: النوع الأول يتعلق بالأسلوب. والثاني يتعلق بالموضوع.

أما الخصائص الأسلوبية، فمن الملاحظ أن السور المكية قد اتسمت بقصر الآيات مع جزالة اللفظ، وإيجاز العبارة بما يصخ الأذان، ويشتد وقعه على السامع، وربما كان ذلك لأن المخاطبين أهل فصاحة فيناسبهم الإيجاز دون الإطناب. كما كانوا أهل لجاجة ومشاقة فيناسبهم أن يخاطبوا بقوة الألفاظ الزاجرة، وهذا تحت إطار القضية البلاغية «لكل مقام مقال» ولنأخذ مثالاً لذلك: آيات من سورة الشعراء المكية وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

ويعد هذا التهديد العنيف، والوعيد الأليم، والإنذار من مثل ما وقع للأمم السابقة الظالمة، ينتقل الحديث مرة أخرى إلى القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، وأن الشياطين محجوبون عنه لا يغيروا فيه ويبدلوا: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾فإن العبارة

---

(١) المعجم الوسيط ج١ ص ٢٩٧، ط. مجمع اللغة العربية.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ١٥٠، ط. دار الفكر ـ بيروت.

موجزة واضحة لتبليغ الغاية المرجوة، وهي تبيان حقيقة القران الكريم، ورد شبهة من قالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]، أو قالوا: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] أو قالوا: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [الشعراء]. ثم ترسم الآيات القرآنية طريق الدعوة للنبي، ﷺ، وهو الاعتماد على الله تعالى، وإنذار عشيرته الأقربين، وخفض الجناح للمؤمنين، وأخذهم بالرفق في عبارات واضحة موجزة وفواصل قصيرة: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء].

وأكثر ما يكون ذلك في المفصل وغالبه نزل بمكة، فخاطب أهلها بما يناسب حالهم في العناد والكفر والغفلة التامة عن الحق تبارك وتعالى، والانغماس في اللهو والفجور. حتى عبدوا مع الله غيره، مما سولت لهم أنفسهم وزين لهم شيطانهم.

يقول الأستاذ سيد قطب عند تقديمه لسورة النبأ، وهو يتكلم عن خصائص الجزء الأخير من القرآن الكريم ـ هذا الجزء كله ومنه هذه السورة أي سورة النبأ ـ ذو طابع غالب سوره مكية فيما عدا سورتي البينة والنصر. وكلها من قصار السور، على تفاوت في القصر.

والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة على وجه التقريب في موضوعها واتجاهها وإيقاعها وصورها وظلالها وأسلوبها العام أنها طرقات متوالية على الحس. وطرقات عنيفة قوية عالية وصيحات بُنُوَّم غارقين في النوم. نومهم ثقيل. أو بسكارى مخمورين. أو بِلاهِينَ في سامرٍ رَاقصين في ضجة وتصدية ومكاء[1] تتوالى[2] على حسهم تلك الطرقات، والصيحات المنبعثة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد. اصحوا استيقظوا انظروا تلفتوا تفكروا تدبروا. إن هناك إلهاً وإن هناك تدبيراً، وإن هناك تقديراً، وإن هناك ابتلاء، وإن هناك تبعة وإن هناك حساباً وإن هناك جزاء وإن هناك عذاباً شديداً ونعيماً كبيراً[3] منها قوله

---

(١) المكاء هو الصفير .

(٢) والتصدية : التصفيق .

(٣) في ظلال القرآن، المجلد ٨ ص ٥٣٤.

تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النبأ].

وصنف آخر عرف أن له ربّاً فآمن به وبما أرسل من رسل. وصدقهم واتبع ما جاؤوا به من عند الله فخاف الله وكبح جماح نفسه، واتقى الله فوَفَّاهُ الله أجره بغير حساب: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ].

ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة النازعات: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ . أما النوع الآخر فهو الذي صوَّرته هذه الآية: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات].

وفي سورة عبس يُنَبِّه الإنسان الغافل الجاحد لنعم الله الذي أوجده من العدم: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

وهو الإنسان المخاطب في سورة الطارق: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق].

والأمثلة على ذلك كثيرة وأكتفي بما تقدم لبيان الخصائص اللفظية الأسلوبية التي اتسمت بها السور والآيات المكية.

أما النوع الثاني فهو الخصائص الموضوعية التي اتسمت بها السور المكية: وذلك كقصص الأنبياء والأمم السابقة فمن ذلك قصة آدم عليه السلام فإنها لم ترد إلا في سور مكية باستثناء سورة البقرة ـ ففي سورة الأعراف نجد قصة آدم عليه السلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ونجد فيها كذلك قصة موسى، عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴿١٠٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

وفي سورة يونس نجد قصة نوح عليه السلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى ﴿٧١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

ونجد في هذه السورة الكريمة قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴿٧٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وكذلك نجد فيها إشارة إلى يونس عليه السلام وقومه في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

أما في سورة هود فإنا نجد أن قصة نوح قد بسطت ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ وحتى قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

وفيها كذلك قصة عاد قوم هود من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

كما فيها قصة صالح عليه السلام مع ثمود. وذلك من قوله عز وجل: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴿٦١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

كما أخذت قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام حيزاً كبيراً من هذه السورة ابتداء من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وفيها كذلك قصة شعيب مع قومه عليه السلام من قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ

أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٨٤﴾ الى قوله تعالى: ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وذكر فيها كذلك بعضاً من قصة موسى مع فرعون[1]. أما سورة يوسف، عليه السلام، فقد انفردت بقصته كاملة مع أبويه وقومه ولم تتكرر في مكان آخر من القرآن.

وتحدثنا سورة الحجر أيضاً عن آدم وإبراهيم ولوط، عليهم السلام،[2] ونجد قصة أصحاب الكهف في السورة التي سميت باسمه[3]. وفيها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب[4]، وفيها قصة موسى والعبد الصالح وفيها قصة ذي القرنين. وقصة زكريا ويحيى وعيسى، عليهم السلام، وقصة مريم تجدها مبسوطة في سورة مريم. ومحاجة إبراهيم مع قومه وتكسير أصنامهم وإلقاؤه في النارونجاته منها، وقصة داود وسليمان وذي النون كل ذلك في سورة الأنبياء. وذكرت قصة موسى، عليه السلام، في سورة طه، فهي أيضاً قد ذكرت بطريقة أخرى في سور الشعراء والنمل والقصص. ونجد قصة نوح وإبراهيم ولوط في سورة العنكبوت[5]. وتذكر في سورة سبأ قصة داود وسليمان كما وردت أيضاً في سورة « ص »[6]، وفي سورة الذاريات ورد ذكر إبراهيم ولوط، عليهم السلام،[7] هذا على سبيل المثال لا الحصر. والملاحظ أن هناك تكراراً لبعض القصص ـ ولنأخذ مثالاً لذلك قصة موسى، عليه السلام. فقد وردت مثلاً في سورة الأعراف ويونس والإسراء والكهف وطه والشعراء والنمل والقصص كما ذكرت في سورة غافر والزخرف والنازعات ولهذا التكرار لا شك حكمة بل حكم بالغة منها:

أنه تذكر بعض السور من أخبار الأنبياء ما لم يذكر في سور أخر على طريقة

---

(١) الآيات من ٩٦ ـ ٩٩ .
(٢) الآيات من ٢٦ ـ ٣٣ .
(٣) الآيات من ٣٢ ـ ٤٣ .
(٤) الآيات من ٣٢ ـ ٤٣ .
(٥) الآيات من ١٤ ـ ٣٥ .
(٦) من الآيات ١٠ ـ ١٤ من سورة سبأ ومن الأيات ٢٢ ـ ٤٠ من سورة ص .
(٧) الآيات من ٢٤ ـ ٣٧ .

الإطناب وفي مواضع أخر على طريقة الإيجاز لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين معاً. يقول الباقلاني في إعجاز القرآن، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر:

« تأمل السورة التي يذكر فيها النمل » وانظر فيها كلمة كلمة وفصلاً فصلاً . . بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [النمل]، ثم وصل بذلك قصة موسى، عليه السلام، وأنه رأى ناراً: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾. وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ وفي موضع: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]. قد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. ولهذا قال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور]، ليكون أبلغ في تعجيزهم وإظهار الحجة عليهم[1].

قلت: إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة في الطول والقصر، والإطناب والإيجاز مع المحافظة على جوهره ولبه هو في نفسه غاية في الإعجاز، وهذا من أسرار ذلك التكرار، ومن هذه الحكم: أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد، منها: إثبات الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر هلاك من كذبهم بأنواع المهالك كالإغراق والخسف. ثم ذكر المؤمنين بما أنعم الله عليهم من الأمن والرخاء وسعادتي الدنيا والآخرة.

ومنها: إثبات نبوة سيدنا محمد، ﷺ، وإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد، كما أخبر بذلك القرآن حيث قال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود].

ومنها: إثبات وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، فعندما ذكر هلاك الأمم الغابرة حكى عنهم أنه لما جاء الأمم بهلاكهم لم تغن عنهم هذه الآلهة المزعومة من دون الله من شيء كما هو مذكور في سورة هود: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن

---

(١) ص ١٨٩ طبعة دار المعارف بمصر .

دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ(١) تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود].

ومن ذلك تسلية النبي، ﷺ، عند تكذيب قومه له بالتأسي بمن سبقوه من المرسلين: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج].

ومن خصائص الآيات والسور المكية الموضوعية الحديث عن القرآن الكريم نفسه، وأنه منزل من عند الله، ورد شبهات المنكرين الذين قالوا عنه بأنه سحر أو شعر، كما رد على الذين قالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]، وعلى الذين طالبوا بإنزاله جملة واحدة كالكتب السابقة، وغير ذلك مما ستكشف عنه هذه النماذج التي أوردتها. من ذلك ما جاء في سورة الشعراء: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

وفي سورة الإسراء: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وفي توجيه الحق تبارك وتعالى للمؤمنين عند تلاوته. وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وفي ذم المشركين على نكيرهم عند سماع القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الانشقاق].

وفي مقام الحجة عليهم يقول الحق تبارك وتعالى موجهاً نبيه، ﷺ: ﴿ قُلْ أَىُّ

---

(١) غير تَتْبيب: أي غير تخسير.

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وفي موقف من مواقف المشركين المتعددة مع رسول الله، ﷺ، في مساومتهم له يطلبون منه أن يأتي بقرآن غير هذا الذي أتى به أو أن يبدله بغيره لما وجدوا أن هذا يُسَفِّهُ آلهتهم التي زعموها. قال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ويقولون إنه مفترىً افتراه رسول الله، ﷺ، وأتى به من عنده، فيقذف القرآن الكريم بالتحدي في وجوههم إن كان ما يقولونه حقاً إنه من عند محمد فمحمد بشرٌ مثلكم وابن بيئتكم، لم يتلق تعليماً ولا اشتُهِرَ به، فأتوا بمثل ما أتى به محمد - في نظركم. وإلاّ فإن دعوتكم هذه لا سند لها ولا أساس.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس].

وحينما يتكلم القرآن الكريم عن الهداية يبين أن سبيلها هو القرآن الكريم نفسه لأن من قرأه وتدبره وعمل بما جاء به وسلك منهجه فقد هدي إلى صراط مستقيم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]. وفي سورة الإسراء أيضاً نجد أن القرآن يشير إلى أنه شفاء للمؤمنين ورحمة: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وحينما يستعجل الرسول، ﷺ، ترديد القرآن الكريم عند سماعه من أمين الوحي جبريل ويحرك بذلك لسانه يوجّه بأن ينتظر حتى يقضى إليه وحيه: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]. وفي سورة القيامة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

وحينما تساءل المشركون لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ نزل القرآن ليجيب عن هذا السؤال، ويبين السبب وهو تثبيت فؤاد النبي، ﷺ، وإفحام خصمه، وتيسير حفظه على المؤمنين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان].

ويرفض كفار قريش الإيمان بالقرآن الكريم، وبالكتب السماوية السابقة كالتوراة ليبنوا على نكرانهم هذا إنكار ما جاء فيه من الأمور الغيبية كالبعث مثلاً فيكشف الله ذلك ويحكي عنهم قولهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ].

ويصف المشركون النبي، ﷺ، بأنه شاعر، وأن ما يقوله هو الشعر. فيتصدى القرآن الكريم وينفي هذه الصفة عن القرآن، وعن النبي، ﷺ، ويبين أنه ذكر وقرآن مبين: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس].

هذه نماذج من حديث القرآن الكريم في عهده المكي من القرآن نفسه ولقد سقتُ هذه الآيات كأمثلة على أن من الخصائص الموضوعية للسور والآيات المكية الحديث عن القرآن الكريم مكثفاً في ثناياها، وقد نجد في بعض السور المدنية حديثاً عن القرآن الكريم ولكنه ما بهذه الصورة الغالبة.

المبحث الرابع

في بيان السور المتفق على مكيتها والمختلف فيها

قبل الشروع في بيان هذه السور لابد من أن نقف على المعنى المراد من كلمة « سورة » فنقول:

السورة بغير الهمزة اسم لطائفة من الآيات جمعت وقرنت بعضها إلى بعض حتى تمت وكملت وبلغت من الطول المقدار الذي أراد الله تعالى، ولا تكون السورة إلاّ معروف المبتدأ معلوم المنتهى.

وعرفها الزمخشري[1] في الكشاف بقوله: « السورة طائفة من القرآن المترجمة - أي المسمّاة - وأقلها ثلاث آيات»[2]. ا.هـ. واشتقاقها إما من سور البناء والمدينة، لأن السور يوضع بعضه فوق بعض حتى ينتهي إلى الارتفاع الذي يراد. والسورة كذلك وضعت آية إلى جنب آية حتى بلغت المقدار الذي أراده الله تعالى أو وضعت كذلك لاتصافها بالعلو والرفعة. لأن السورة بمنزلة المنازل والمراتب التي يرقى فيها القارىء أو لرفعة شأنها وجلالة محلها من الدين. كما سمى سور المدينة سوراً لارتفاعه.

قال النابغة الذبياني

ألم تر أن الله أعْطاك سورة

ترى كلَّ ملك دونها يتذبذب

أي: شرفاً ورفعة.

« وقيل سميت سورة لإحاطتها بما فيها من الآيات. كما أن سور المدينة

---

(١) هو: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٤٦٧ ـ٥٣٨ هـ.

(٢) ج١، ص ٢٢٣٩ .

محيط بمساكنها وأبنيتها؛ فإن السورة محيطة بالآيات والكلمات والحروف مشتملة على المعاني من الأمر والنهي والأحكام .أ .هـ. » هذا في حالة عدم همزها. أما إن هُمزت فهي من السؤر، وهو البقية من الشيء والفضلة منه، على اعتبار أن السورة جزء من القرآن. والذي أراه وأرجحه أنها من السور بالواو غير المهموزة على معنى الإحاطة. لإحاطة كل سورة من كتاب الله الكريم على حكم وأحكام وأمور. وهذا لا ينافي اشتمالها على السمو والرفعة.

بعد هذا البيان الذي سقناه في معنى السورة ندخل في موضوع البحث فنقول:

اختلف العلماء في تعيين السور المكية والمدنية، وتعيين الأيات المكية في السور المدنية، والأيات المدنية في السور المكية. وسأورد هذه الآراء ثم أرجح منها ما أطمئن إليه إن شاء الله. وقد ذكرها الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن».

منها: رواية ابن سعد[1] في« الطبقات » قال: أنبأنا الواقدي قال: حدثنا قدامة ابن موسى عن أبي سلمة الحضرمي قال: سمعت ابن عباس قال: سألت أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة. فقال:نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة[2]. وهذه الرواية لم تعين السور وإنما اكتفت بذكر العدد الذي نزل بالمدينة.

ومنها: ما ذكره أبو جعفر النحاس في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: قال: حدثني يموت بن المزرع قال: حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني أنبأنا أبو عبيدة معمر بن المثنى حدثنا يوسف بن حبيب سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: سألت مجاهداً[3] عن تلخيص آي القرآن المدني من المكي فقال: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: سورة الأنعام نزلت جملة واحدة فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة « قل تعالوا. . . . إلى تمام الآيات الثلاث[4] وما تقدم من السور مدنيات.

---

(١) هو : محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري يكنى بأبي عبد الله توفي ٢٣٠هـ. كما أثبت الواقدي ذلك.

(٢) الإتقان جـ١ ص٩.

(٣) هو مجاهد بن جبر المكي أحد التابعين الثقات وأحد العلماء في القراءة والتفسير .

(٤) الآيات من ١٥١ ـ ١٥٣ .

ونزل بمكة سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل سوى ثلاث آيات في آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرفه من أحد وسورة بني إسرائيل - يعني الإسراء - والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج سوى ثلاث آيات:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴿١٩﴾ ﴾[1] إلى تمام الآيات الثلاث فإنهن نزلن بالمدينة وسورة المؤمنون والفرقان وسورة الشعراء سوى خمس آيات من آخرها فإنهن نزلن بالمدينة ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾[2] إلى اخرها.

وسورة النمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان سوى ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴿٢٧﴾ إلى تمام الآيات.

وسورة السجدة سوى ثلاث آيات منها: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

وسورة سبأ وفاطر ويس والصافات وص والزمر سوى ثلاث آيات نزلت في وحشي قاتل حمزة ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ﴿٥٣﴾ ﴾[4] [الزمر]. إلى تمام الآيات. والحواميم السبع وق والذاريات والطور والنجم والرحمن والواقعة، والصف والتغابن إلاّ آيات في آخرها نزلت بالمدينة والملك والحاقة ون وسأل وسورة نوح والجن والمزمل إلاّ آيتين: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾[5]. والمدثر إلى آخر القرآن إلا إذا زلزلت وإذا جاء نصر الله وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فإنهن مدنيات. ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم ».

قال الشيخ جلال الدين السيوطي في « الإتقان »:

---

(١) الآيات من ١٩ ـ ٢١ .
(٢) الآيات من ٢٧ ـ ٢٩ .
(٣) الآيات ١٨ ـ٢٠ .
(٤) الآيات ٥٣ ـ ٥٥ .
(٥) الآيات رقم ١٩ ـ٢٠ .

« هكذا أخرجه بطوله ـ يعني النحاس ـ وإسناده جيد ورجاله كلهم ثقات »[1]

ومن هذه الروايات ما ذكره القرطبي[2] في كتابه « الجامع لأحكام القرآن »، قال: عن قتادة[3]:

نزل بالمدينة من القرآن: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويأيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر[4] وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله.

هذه السور نزلت بالمدينة وسائر القرآن نزل بمكة[5].

ورواية رابعة ذكرها أبو الحسن الحصار[6] في كتابه « الناسخ والمنسوخ » قال: « المدني باتفاق عشرون سورة المختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكي باتفاق »[7].

وهو يعني بالسور العشرين المدنية باتفاق على حسب ما جاء في منظومته التي ذكرها السيوطي في « الإتقان »[8]:

سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقين والطلاق والتحريم والنصر.

وأما السور الاثنتا عشرة المختلف فيها فهي:

---

(١) الإتقان، ج١، ص١٠.
(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
(٣) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي.
(٤) يعني العشر آيات الأول من السورة.
(٥) الإتقان، جـ ١، ص ١١.
(٦) المرجع السابق.
(٧) الإتقان، الجامع لأحكام القرآن، ج ١، ص ٦٢.
(٨) الإتقان، ج١، ص١١.

أولاً: سورة الفاتحة والرعد والرحمن والصف والتغابن والتطفيف والقدر ولم يكن وإذا زلزلت والإخلاص والمعوذتان وما عدا ذلك فمكي النزول.

ولنقف مع هذه الروايات التي وردت في تحديد السور المكية والمدنية.

فالرواية الأولى هي رواية ابن سعد عن ابن عباس عن أبي بن كعب ذكرت أنه نزل بالمدينة سبع وعشرون سورة وسائر القرآن نزل بمكة. ولم تعين السور المكية ولا السور المدنية فقد اكتفت بذكر عدد السور المدنية وما عداها فمكي. ومن غير تعيين هذه السور لا نستطيع الحكم عليها.

وأما الرواية الثانية فهي رواية أبي جعفر النحاس عن أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس فقد عينت السور المكية والمدنية. وتبين لنا من خلالها أن سورة الرعد والحج والرحمن مكيات. كما اعتبرت هذه الرواية أن سورة الفاتحة مدنية.

أما رواية القرطبي عن قتادة فقد ورد فيها أن سورة الرعد والنحل والحج والرحمن مدنيات.

وأمثل هذه الأقوال عندي هو ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه « الناسخ والمنسوخ » حيث قال كما أورده السيوطي في « الإتقان »[1]: « المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وماعدا ذلك مكي باتفاق ».

وهو يريد بالسور العشرين المدنية باتفاق: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقين والطلاق والتحريم والنصر.

ويريد بالسور الاثنتي عشرة المختلف فيها: سورة الفاتحة والرعد والرحمن والتطفيف والقدر ولم يكن وإذا زلزلت والإخلاص والمعوذتين.

ويريد بالسور المكية باتفاق ما عدا ذلك « أ.هـ ».

---

(١) ج١، ص١١ .

يقول الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» وهو يعلق على رواية أبي الحسن الحصار:

«نقل السيوطي في الإتقان أقوالاً كثيرة في تعيين السور المكية والمدنية ومن أوفقها ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ[1] » يريد بذلك الرواية المتقدمة.

ولم يسلم الدكتور محمد محمد أبو شهبة لأبي الحسن الحصار رأيه هذا بل قال: « إن بعض ما ذكره ابن الحصار غير مسلم لأن على رأيه تكون سورة الحج مكية باتفاق مع أنه روى عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية وهي الأرجح ـ وليس من المستساغ أن نعتبر هذا الخلاف كلاخلاف[2] «أهـ». ولقد تناولت سورة الحج هذه كغيرها من السور التي ورد فيها الخلاف حول مكان نزولها ولقد ترجح لدي مكيتها كما هو مبين في محله.

بيان السور التي ورد الخلاف في مكان نزولها ورأينا في هذا الخلاف:

١ـ سورة الفاتحة:

وهي من السور التي ورد الخلاف في مكان نزولها فالأكثرون على أن هذه السورة الكريمة نزلت بمكة قبل الهجرة بينما قال غيرهم: إنها نزلت بالمدينة بعد الهجرة كما سبق ذكره في الرواية المتقدمة عن عبد الله بن عباس وقتادة وأبي العالية.

والذين قالوا بأنها مكية استدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر].

ولقد فسرها النبي ﷺ بالفاتحة كما في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الحمد لله رب العالمين أم القرآن والكتاب والسبع المثاني»[3].

---

(١) ج١ ص ١٩١ .
(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٢٢٦ .
(٣) سنن الترمذي ج ٥، ص ٢٩٧ .

ومعلوم أن هذه الآية من سورة الحجر وهذه السورة مكية بالإجماع.

قال السيوطي في « الاتقان »:

« وقد امتن الله على رسوله بها فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها إذ يبعد أن يمتن الله عليه بما لم ينزل بعد وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ولم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة»[1]. أهـ

إضافة إلى ما تقدم فإن كل الآيات التي أحاطت بهذه الآية الكريمة تدل على أنها مكية فقبلها نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر].

فسمات القرآن المكي واضحة بينة تتمثل في لفت النظر إلى خلق السموات والأرض وما بينهما وما في ذلك من الدلالة على قدرة الله تعالى ثم الإشارة إلى أن الساعةآتية لاريب فيها. وتوجيه النبي،ﷺ، بالصفح الجميل عن المعارضين للدعوة والداعية وأن هؤلاء مصيرهم الهلاك. وفي هذا ما فيه من التسلية للنبي،ﷺ، ثم يمتن الله على رسوله بأن الله جل جلاله قد أعطاك السبع المثاني والقرآن العظيم فاصرف النظر عن متاع الدنيا فإنه عرض زائل مهما طال وقليل مهما كثر، كما وجه ﷺ بخفض الجناح للمؤمنين.

قال ابن كثير في تفسيره القرآن العظيم: « ويقال نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة والأول أشبه ـ يعني بمكة ـ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر][2]

وهناك رأي لم أجد له سنداً يتعلق بمفهوم هذه الآية الكريمة ذكره أستاذي المرحوم الدكتور محمد محمود حجازي في كتابه« الوحدة الموضوعية للقرآن

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ج١ ص١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٨.

الكريم»، مدللاً بذلك على وحدة الموضوع في القرآن الكريم، وإن تباعد زمن النزول بين آياته قال:

ومن العجب أن الآية ٨٧: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ مدنية، ومن أواخر القرآن نزولاً. ثم هي قد وضعت بين آيات مكية فهل رأيتها قلقة في موضعها بين أخواتها المكيات؟ هل رأيت تنافراً في السورة كلها مع عناصرها المتعددة المختلفة نزولاً وغرضاً ؟.

أنت إن قرأت السورة أو سمعتها ما شككت أنها نزلت مرة واحدة ودفعة واحدة مع أنها كما علمت متباعدة في زمن النزول»[١]. أهـ. ثم قال في الهامش في نفس الصفحة:[٢]

« هذا رأي بعضهم بناء على أن المراد بالسبع المثاني السبع الطوال ولا شك أنها مدنية ومنها مكي ويرى بعضهم أن الآية مكية ». أهـ.

ورحم الله أستاذنا حجازي، فهو في سبيل الانتصار لوحدة القرآن الموضوعية، كان يمكنه أن يأخذ مثالاً من غير هذا المثال، الذي هو قد شكك القارىء فيه، وقد بينت فيما تقدم أن النبي، ﷺ، قد فسر فاتحة الكتاب بأنها السبع المثاني والقرآن العظيم.

وفي تفسير« أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوي[٣] جاء قوله:« وقد صح أنها مكية ـ أي الفاتحة ـ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر][٤] . أهـ .

وهناك من يرى أن هذه السورة الكريمة هي أول القرآن نزولاً كما جاء في « كتاب البرهان في علوم القرآن» للزركشي[٥] حيث قال:« وقيل أول ما نزل سورة

---

(١) ص٥٧ ط. دار الكتب الحديثة.
(٢) ص٥٧ ط. دار الكتب الحديثة.
(٣) هو: عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي.
(٤) تفسير البيضاوي ج١ ص٨ ط. مؤسسة شعبان للنشر ـ بيروت.
(٥) هو: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .

الفاتحة روى ذلك من طريق أبي إسحاق عن أبي ميسرة قال: كان رسول الله،ﷺ، إذا سمع الصوت انطلق هارباً، وذكر نزول الملك عليه وقوله قُل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ . . . . إلى آخرها ﴾[1].

ثم قال الزركشي:

وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: وهذا الخبر منقطع»[2]. أهـ.

قلت: والصحيح أن أول ما نزل عليه من القرآن، عليه الصلاة والسلام، هو صدر سورة اقرأ كما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

« أول ما بدىء به رسول الله،ﷺ، من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق]. فرجع بها رسول الله،ﷺ، يرجف فؤاده[3].

فإن هذا الحديث واضح الدلالة على أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو صدر سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق، إلا إذا قصد بذلك أن الفاتحة هي أول سورة نزلت كاملة. إضافة إلى ما تقدم فإن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على التوحيد والمعاد والنبوات، كما أنها افتتحت بالثناء على الله تبارك وتعالى، وهذه الافتتاحية كل السور التي افتتحت بها سور مكية النزول من غير خلاف وهذه السور هي:

---

(١) ج١ ص٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) صحيح البخاري جـ١ ص٣.

سورة الأنعام:

فهي مفتتحة بقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾.

وسورة الكهف:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴿٢﴾ ﴾.

وسورة سبأ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

وسورة فاطر:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

هذه السور كلها مكية النزول، وكلها مفتتحة بالثناء على الله عز وجل، ثم زيادة على ما تقدم فإني بالتتبع والاستقراء ما وجدت هذه الكلمة المباركة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إلا في سورة مكية. وتأتي مصحوبة بنعمة من نعم الله تعالى التي لا تحصى. وإليك قارئي الكريم بيان ذلك:

١ـ في سورة الأنعام: قوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

٢ـ وفي سورة الأعراف: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾ ﴾.

٣ـ وفي سورة يونس: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

٤ـ وفي سورة إبراهيم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

٥ـ وفي سورة النحل: ﴿ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

٦ـ وفي سورة الإسراء: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾.

٧ـ وفي سورة المؤمنون: ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

٨ـ وفي سورة النمل: ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

٩ـ وفيها أيضاً: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ﴿٥٩﴾ ﴾. [النمل]

١٠ـ وفي نفس السورة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

١١ـ وفي سورة القصص: ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

١٢ـ وفي سورة العنكبوت: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

١٣ـ وفي سورة الروم: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

١٤ـ وفي سورة لقمان: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

١٥ـ وفي سورة سبأ: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

١٦ـ وفي سورة فاطر: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

١٧ـ وفي سورة الصافات: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

١٨ـ وفي سورة الزمر: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

١٩ـ وفيها أيضاً: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

٢٠ـ وفيها كذلك: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

٢١ـ وفي سورة غافر: ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

٢٢ـ وفي سورة التغابن: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

يظهر مما تقدم من الآثار والأحاديث، ومن التتبع والاستقراء الذي سقناه أن سورة الفاتحة مكية النزول.

ثانياً: سورة الرعد:

ففي رواية الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما التي تقدم ذكرها أنها مكية النزول.

والرواية الثانية عن قتادة أنها مدنية.

وقد ذكر ابن كثير أنها مكية النزول[1].

والدارس لهذه السورة الكريمة يجد أنها تتفق تماماً مع الجو العام للدعوة الإسلامية في عهدها المكي ـ وقد تقدم لنا في البحث الثاني في ضوابط المكي والمدني:

أن السور التي افتتحت بأحرف التهجي كلها مكية باستثناء سورتي البقرة وآل عمران.

وسورة الرعد قد افتتحت بهذه الأحرف، كما أنها تناولت موضوع العقيدة، وما يتصل بها من أمر الرسالة والبعث والجزاء. وتأكيداً لأمر العقيدة نجد ذكر آيات الله الكونية مبسوطة في هذه السورة كما ذكرت في ثنايا آياتها نعم الله على عباده. فاتحة هذه السور هي: ﴿ الْمَرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾.

كما فيها الانتصار للقرآن الكريم شأنها في ذلك شأن السور المكية وأن نزوله

---

(١) جـ١ ص٤٩١.

من عند الله حق لا ريب فيه وإقامة الأدلة على توحيد الله بما يرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

وذلك والله أعلم تفصيل لما أجمل في سورة يوسف، عليه السلام، التي قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فأجملت هذه الآية التي « يمرون عليها » في سورة يوسف، وفصلت في سورة الرعد.

كما تحدثت آيات هذه السورة عن إثبات البعث، وكشفت عن حال المشركين وهم يتعجبون من أن يكون هناك معاد وخلق جديد.

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

والمخاطب هنا رسول الله، ﷺ، : وأن تعجب من تكذيب الكفار فحقيق بالعجب قولهم ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ « لأن القادر على إنشاء الخلق من غير مثال قادر على إعادتهم »[1].

كذلك تبين سورة الرعد طلب المشركين من الرسول، ﷺ، العذاب واستعجاله:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴿٦﴾ ﴾.
واستعجال العذاب من المشركين بهذا الأسلوب نجده في آيات كثيرة في السور

---

(١) انظر تفسير الجلالين ج٢ ص٣٢٧ .

المكية منها ما جاء في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾. ومنها: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ ﴾ [المعارج].

ومن ذلك ما ذكره عنهم القرآن الكريم في سورة ص: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ﴾، أي نصيبنا من العذاب.

قالوا ذلك استهزاء وتكذيباً، وكما ذكر القرآن الكريم قولهم بطلب العذاب في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾.

قالوا ذلك من شدة كفرهم وعنادهم واستهزائهم.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية من سورة الأنفال والسورة مدنية. نقول: نعم، إن السورة مدنية ولكن القائل هو النضر بن الحارث، وقيل: هو أبو جهل والباقون رضوا بذلك.

فقد روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: « اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم».

قال ابن حجر: قوله: قال أبو جهل: اللهم إنْ كان هذا إلى آخره: ظاهر في أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به، ورضي الباقون فنسب إليهم[1].

وكذلك نجد في هذه السورة تسلية النبي، ﷺ، حينما كذبه قومه وذلك بإخباره بأحداث الرسل الذين سبقوه عليهم الصلاة والسلام: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠ ﴾.

أي: كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك في أمة قد سبقتها أمم لتقرأ عليهم

---

(١) فتح الباري ج٨ ص٣٩.

الذي أوحينا إليك وهو القرآن الكريم مع كفرهم بالرحمن، وعدم السجود له فاستمسك أنت به وادع له، وقل ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب.

وأمثال هذا الأسلوب والمعنى الذي سيق لبيانه كثير في السور المكية. فقد جاء في سورة الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

كما تحدثت هذه السورة الكريمة عن الجنة التي وعد بها المتقون، والنار التي هي عقبى الكافرين وبئس المصير.

أما ماجاء في ختام سورة الرعد وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾. فقد قالوا الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام وهو قد أسلم بعد الهجرة النبوية.

قال ابن كثير: قيل نزلت في عبد الله بن سلام[1]، قاله مجاهد. وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي، ﷺ، المدينة.. ثم قال: والأظهر ما قاله العوفي عن ابن عباس: هم من اليهود والنصارى. ثم قال ابن كثير:

والصحيح في هذا: أن من عنده اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد، ﷺ، ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾ ﴾. [الأعراف].

وأمثال ذلك مما فيه من الأخبار من علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة[2].

وقال القرطبي رحمه الله: سورة الرعد مكية في قول الحسن وعكرمة

---

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف النبي، عليه السلام، الإسرائيلي ثم الأنصاري. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج٢ ص٣٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٢١.

وعطاء[1] وجابر[2] »[3]. أهـ.

وحينما تكلم الأستاذ سيد قطب رحمه الله في مقدمة تفسيره هذه السورة قال: إن موضوعها الرئيس ككل موضوع السور المكية كلها على وجه التقريب هو العقيدة، وقضاياها هي توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً. ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث وما إليها... ويقول عن جو السورة العام:

« إنه جو المشاهدة الطبيعية المتقابلة: من سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وضخوص وظلال وجبال راسية وأنهار جارية وزبد ذاهب وماء باق وقطع من الأشجار متجاورات مختلفات ونخيل صنوان وغير صنوان. ومن ثم تطرد هذه المتقابلات في كل المعاني وفي كل الحركات وفي كل المصائر في السورة فيتناسق التقابل المعنوي مع التقابلات الحسية... وتتسق في الجو العام. ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر، ويتقابل ما تغيض به الأرحام مع ماتزداد. ويتقابل مَنْ سَرَّ القول مع مَنْ جهر به. ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق. ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفاً. وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى. ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع مَنْ ينكر بعضه ويتقابل المحو مع الإثبات في الكتاب»[4].

إضافة إلى ماتقدم فإنني أرى أن هذه السورة الكريمة لا تحمل أي سمة من سمات القرآن المدني. فليس بها تشريع ولا أحكام فرعية، وإنما ركزت على وحدانية الله تعالى، وإبراز قدرته التي لا تقهر، وإظهار آياته الكونية واضحة لكل ذي عقل وبصيرة. من أجل ذلك كله فإني أرجح أن سورة الرعد مكية النزول.

---

(١) هو: عطاء بن رباح ت سنة أربع عشرة من الهجرة.

(٢) هو: جابر بن عبد الله.

(٣) تفسير القرطبي ج٢ ص٢٧٨.

(٤) في ظلال القرآن مجلد٥ ص٦٥ ط. دار التراث العربي ـ بيروت.

ثالثاً: سورة الحج:

هذه السورة الكريمة من السور التي اختلف في زمان نزولها حتى إن من المفسرين من اعتبر آياتها مختلطة بين المكي والمدني[1].

وهناك من اعتبرها مدنية باستثناء آيات منها كما ذكر الشيخ مصطفى المراغي حيث قال: هي مدنية إلا الآيات: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، يعني بذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾. ثم قال: والأصح أنها مختلطة منها المكي والمدني[2]. أهـ.

ومن اعتبر هذه السورة مكية من المفسرين الإمام فخر الدين الرازي.

قال في التفسير الكبير: « سورة الحج سبعون آية وست آيات وهي مكية إلا ثلاث آيات منها: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

وبهذا قال أبو السعود[4] والقرطبي والخازن[5]، والإمام البغوي[6]، والألوسي[7].

ويؤيد قولهم هذا ما جاء في فتح الباري تحت باب: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ

---

(١) انظر تفسير: فتح القدير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج٣ ص٤٣٤ ط. بيروت.

(٢) تفسير المراغي ج١٦ ص٨٣.

(٣) التفسير الكبير، المجلد ٢٣، ص٢ .

(٤) هو: محمد بن العماد الحنفي.

(٥) هو: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ت ٧٢٥.

(٦) هو: أبو محمد الحسين الفراء البغوي .

(٧) هو: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الأندلسي البغدادي.

ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج]. نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر[1]. أ هـ.

والمراد بذلك ما دار في غزوة بدر بين المسلمين والمشركين. ففي بداية القتال كان قد برز من صفوف المسلمين الصحابة الأجلاء: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة. وهذه الغزوة قد حدثت في السنة الثانية الهجرية.

وروى ابن جرير الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنها نزلت في أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: « نحن أولى بالله منكم وأقدم كتاباً ونبينا قبل نبيكم، فقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بمحمد وبنبيكم وما أنزل الله من كتاب »[2]. أ هـ.

إن كلا الروايتين تفيد أن هذه الآيات من هذه السور قد نزلت بالمدينة، حيث إن غزوة بدر قد حدثت في السنة الثانية الهجرية، ومحاجة أهل الكتاب للمسلمين لم تحدث إلاّ في المدينة بعد الهجرة. هذا على فرض أن ما ذكره ابن جرير الطبري صحيح. ويقول الأستاذ سيد قطب في مقدمته لتفسير سورة الحج:

« والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية. فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة وإثبات البعث وإنكار الشرك ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون بارزة في السورة. ثم قال: وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو لا يريد العدوان، والأمر بالجهاد في سبيل الله. والظلال الواضحة في جوِّ السورة كلها ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام »[3].

---

(١) فتح الباري، ج٨، ص٤٤٣ .
(٢) المجلد التاسع، ص٩٩، ط دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
(٣) المجلد رقم ٥، ص٥٧٥.

ولقد ذكر قبل ذلك أن هذه السمات البارزة للسور المكية أنها يكثر فيها ذكر يوم القيامة وما فيه من الأهوال كما يكثر فيها ذكر الآيات الكونية للفت النظر إلى قدرة الله تعالى. ثم ذكر الأمم الماضية وما حصل لها مع رسلها. وفي سورة الحج التي نتحدث عنها نجدها تتناول هذه الموضوعات. ففي افتتاحيتها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾.

وفيها قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ ﴾ [الحج]. وذلك تسلية لرسول الله، ﷺ، عما يلاقيه من أذى قومه له ولأصحابه.

وفيها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨ ﴾.

وفيها كذلك قوله عز ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦ ﴾ [الحج].

وفي هذه السورة الكريمة ضرب المثل للذين اتخذوا مع الله شركاء، وبيان أن هؤلاء الشركاء ضعفاء لا ينصرون أنفسهم بله الآخرين. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ ﴾ [الحج].

أما ما ورد في هذه السورة من ذكر القتال والإذن به فإنه معلوم أن القتال لم يؤذن به إلاّ بعد الهجرة في المدينة المنورة. ولهذا فإني أرجح أن السورة مكية،

وهذه الآيات مستثناة كما تقدم من قبل. وهو الذي يجعلني أميل إلى أن سورة الحج مكية النزول إلاّ ما استُثنيَ منها.

رابعاً: سورة الرحمن:

وهي من السور التي ورد الخلاف في زمان نزولها عند العلماء. ففي رواية عبد الله بن عباس المتقدمة[1] أنها مكية. وفي رواية قتادة أنها مدنية.

قال السيوطي في كتابه « الدر المنثور في التفسير المأثور »: سورة الرحمن مكية. وذكر عدة أحاديث منها:

١ـ ما أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قال: أنزل بمكة سورة الرحمن.
٢ـ ومنها ما أخرجه ابن مردويه أيضاً عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: نزلت سورة الرحمن بمكة[2].

وجاء في مسند الإمام أحمد، رَحِمَهُ اللَّهُ: قال عبد الله حدثني أبي حدثنا يحيى بن إسحاق قال أنبأنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، قالت: سمعت رسول الله، ﷺ، يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾[3] [الرحمن].

وقال ابن كثير في تفسيره عند قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف]: قال: قال: الحافظ البيهقي حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي حدثنا هشام بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: قرأ رسول الله، ﷺ، سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: « مالي أراكم سكوتاً لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً، ما قرأت عليهم هذه الآية من

---

(١) انظر ص ٤٥.
(٢) ج٥، ص١٢٧ .
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل،ج٦، ص٣٤٩ .

مرة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]. إلاّ قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[1].

وبما أن قصة سماع الجن لسورة الرحمن قد وردت في سورة الأحقاف وهي مكية إجماعاً. فإن في ذلك إشارة إلى أن سورة الرحمن مكية.

ثم ما ذكره ابن إسحاق من أن أول من جهر بالقرآن ـ بعد رسول الله، ﷺ، بمكة المكرمة هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود.

قال ابن إسحاق حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله، ﷺ، بمكة عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله، ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر بها قط[2]. فمن رجل يُسْمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها. حتى قام عند المقام قرأ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ رافعاً بها صوته ـ ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن].

قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد ؟.

ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه. فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك.

فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن. ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً. قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون »[3]

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص١٧٠، ط عيسى البابي الحلبي .

(٢) ربما يعني ذلك من الصحابة، عليهم رضوان الله، وإلاّ فقد سمعوه من رسول الله، ﷺ.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام،ج١، ص ٣١٨ ـ ٣١٩، ط مصطفى البابي الحلبي.

إضافة إلى ما تقدم فإن الدارس لهذه السورة الكريمة يجد أنها قد اتسمت بسمات القرآن المكي أسلوباً وموضوعاً، فمن حيث الأسلوب نجدها قصيرة الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة شأنها في ذلك شأن السور المكية: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ . . . ﴾[الرحمن] إلى آخر الآيات.

أما من حيث الموضوع فإن السورة قد اشتملت على آيات وبراهين تدل على قدرة الله تعالى على كل شيء، فهو الذي علم القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان، وهو خالق الشمس والقمر والنجم والشجر، وخالق الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

وتبين حال المجرمين الجاحدين لألوهية الخالق جل وعلا، وأنهم يعرفون بسيماهم فيؤخذوا بالنواصي والأقدام لملاقاة مصيرهم المحتوم « جزاء وفاقاً ». كما تبين بالمقابل حال المتقين الذين يخافون مقام ربهم ويقدرونه حق قدره، وما أعده الله لهم من نعيم مقيم.

وهناك ملاحظة أخرى من سورة الرحمن لا نكاد نجد لها مثيلاً إلاّ في السور المكية وهي ظاهرة تكرار الكلمات، مثال ذلك: كلمة « الميزان » فقد تكررت ثلاث مرات، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الرحمن].

قال الكرماني[1]: « أعاده ثلاث مرات فصرح ولم يضمر، ليكون كل واحد قائماً بنفسه غير محتاج إلى الأول. وقيل: لأن كل واحد غير الآخر:

الأول: ميزان الدنيا، والثاني: ميزان الآخرة، والثالث: ميزان العقل.

وقيل: نزلت متفرقة فاقتضى الإظهار »[2].

وآية أخرى قد تكررت إحدى وثلاثين مرة وهي قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

---

(١) الكرماني: هو أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني الشافعي يلقب بتاج الدين الفراء، ت سنة ٥٠٠ هـ.

(٢) أسرار التكرار في القرآن، ص١٩٨.

﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[الرحمن]. ثماني منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله تعالى، وبدائع صنعه[١] ومبدأ الخلق ومعادهم.

ثم سبع[٢] منها عقب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنم.

وحسن ذكر آلاء عقبها، لأن في صرفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك أكبر النعماء، ثم بعد هذه السبع ثمان[٣] في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة.

ثم ثمان أخرى[٤].

قال الدكتور شوقي ضيف في كتابه « سورة الرحمن وسور قصار » عند كلامه على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾. قال: « كان ذلك حرياً بأن يلفت أنظار الصحابة. رضوان الله عليهم، كما لاحظ ذلك رسول الله، ﷺ، فإما أن يردوا عبارة الجن قائلين: « ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد ».

وإما أن يردوا بالآية نفسها مع كل نعمة قائلين: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ »[٥].

كما نجد مثل هذا النوع من التكرار في سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء]. فقد ذكرت هاتان الآيتان ثماني مرات:

الأولى عقب خلق الأرض وما أنبت فيها الله تعالى من النبات وما بسط فيها من النعم، وفي ذلك دلالة على قدرة الخالق جل وعلا. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء]، من زرع وثمار وحيوان. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ

---

(١) الآيات من ١٣ ـ ٣٠.
(٢) الآيات من ٣١ ـ ٤٢.
(٣) الآيات من ٤٦ ـ ٦١.
(٤) الآيات من ٦٢ ـ ٧٧.
(٥) ص ٣٢ ـ ٣٣، ط دار المعارف، مصر.

﴿أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

فقد ذكرتا إضافة إلى ما تقدم عقب قصة موسى[١]، وقصة إبراهيم[٢]، وقصة نوح[٣]، وقصة هود[٤]، وقصة صالح[٥]، وقصة لوط[٦]، ثم قصة شعيب[٧]، عليهم الصلاة والسلام.

كما تكرر لفظ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ في السورة نفسها في خمسة مواضع في قصة نوح[٨]، وهود[٩]، وصالح[١٠]، ولوط[١١] وشعيب[١٢].

ومن ذلك ما ورد في سورة القمر كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ [القمر]. بعد بيان ما نزل من العذاب بقوم نوح وعاد وثمود يكون بما حل بهم عظة لأولي الألباب.

كما تردد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]. أربع مرات. ومثله أيضاً ما جاء في سورة المرسلات في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. فإنها قد ذكرت عشر مرات عقب تفصيل القول في المعاد وجزاء الكافرين، وثواب المتقين، وسورة المرسلات مكية بالإجماع.

وكأن هذا التكرار مراد منه ـ والله أعلم ـ أن يخرق سمع مَنْ في آذانهم وقر، وعلى قلوبهم أكنة من مشركي العرب وغيرهم.

---

(١) الآيتان رقم ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) الآيتان رقم ١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٣) الآيتان رقم ١٢١ ـ ١٢٢ .
(٤) الآيتان ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٥) الآيتان رقم ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٦) الآيتان رقم ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٧) الآيتان رقم ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٨) الآيات من ١٠٦ ـ ١٠٩.
(٩) الآيات من ١٢٤ ـ ١٢٧ .
(١٠) الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥ .
(١١) الآيات من ١١٦ ـ ١٦٤ .
(١٢) الآيات من ١٧٧ ـ ١٨٠ .

فهذا الذي أوردته من الآثار عن الصحابة، عليهم رضوان الله، وقبل ذلك ما جاء في قصة الجن، وهذه المتماثلات في السور المكية، يدعوني كل ذلك إلى ترجيح أن سورة الرحمن مكية النزول.

خامساً: سورة الصف:

وهي من السور التي ورد الخلاف في زمان نزولها. ففي رواية عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أنها مكية[1] النزول ـ بينما هي مدنية في رواية قتادة.

قال الشوكاني في تفسيره[2]: هي مدنية.

قال الواحدي في أسباب النزول: قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الصف].

أخبرنا محمد بن أحمد بن جعفر أخبرنا محمد بن عبد الله بن زكريا أن محمد ابن عبد الرحمن الدغولي قال أخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا ابن كثير الصنعاني عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام « قال قعدنا نفر من أصحاب النبي، ﷺ، وقلنا: لو نعلم أي العمل أحب إلى الله تبارك وتعالى عملناه. فأنزل الله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴿٤﴾ ﴾ إلى آخر السورة. فقرأها علينا رسول الله، ﷺ »[3].

قلت: إن عبد الله بن سلام لم يسلم إلاّ في المدينة بعد هجرة النبي، ﷺ، على أصح الآراء وإن القتال لم يفرض إلاّ في المدينة في السنة الثانية من هجرة المصطفى، ﷺ، كما تقدم بيان ذلك في سورة الحج. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فموضوع هذه السورة هو الحث على القتال في سبيل الله والثبات عليه، وذكر حال أهل الكتاب من يهود ونصارى وافترائهم على الله الكذب، وكشف نواياهم بأنهم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) انظر ص ٥ من الرسالة.
(٢) ج٥، ص٢١٨ .
(٣) ص ٢١٨ .

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف].

وكما أن سورة الرحمن ـ التي تقدم ذكرها ـ قد شاركت غيرها من السور المكية أسلوباً وموضوعاً ـ فإن سورة الصف موضوعها الرئيس هو أحد الموضوعات التي عالجتها السور المدنية، وهو القتال والحث عليه، والثبات فيه.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف].

وهذه التجارة الرابحة عند الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف].

وموضوع القتال والحث عليه، وما يناله المجاهد من الثواب العظيم عند الله قد تناولته السور المدنية كالذي ورد في سورة آل عمران والأنفال والتوبة والأحزاب.

كما كشفت سورة الصف نوايا اليهود والنصارى في إخماد كلمة الحق، كذلك ورد ذلك في سورة التوبة فقد غلب عليهم قولهم الكذب، حين قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ـ ذلك قولهم بأفواههم ما أنزل الله به من سلطان ـ وما لهم بذلك من علم ولا بآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا.

جاء في سورة التوبة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة].

مما تقدم يتبين لنا أن موضوع سورة الصف وأسلوبها يتفقان تماماً مع موضوع السور المدنية وأسلوبها إضافة إلى ما تقدم من حديث عبد الله بن سلام. وهذا ما جعلني أرجح أن سورة الصف مدنية النزول.

سادساً: سورة التغابن:

وهي من السور التي ورد الخلاف في زمان نزولها. ففي الرواية ـ المتقدمة ـ عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنها مكية.

وفي رواية قتادة أنها مدنية. ولعل التوفيق بين الروايتين ممكن، من حيث أن بعض السورة قد نزل بمكة وبعضها قد نزل بالمدينة.

قال السيوطي في « الإتقان »: « التغابن » يستثنى منها على أنها مكية آخرها كما أخرجه الترمذي، والحاكم في سبب نزولها[1].

وقال الشوكاني في « فتح القدير » أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلاّ الآيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله، ﷺ، جفاء أهله وولده فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن]. إلى آخر السورة. أ هـ[2].

أقول: إن هذه السورة الكريمة قد جمعت بين المكي والمدني، غير أنها يغلب عليها جو السور المكية فيما تناولته من موضوعات. فهي تتحدث عن قدرة الله تعالى وبأنه خالق السماوات والأرض بالحق ـ وهو الذي صور الإنسان في أحسن صوره وإليه مرجعه. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن].

ثم تنذر السورة من العذاب الأليم الذي وقع للأمم الماضية نتيجة كفرهم

---

(١) ج١، ص ١٧ .
(٢) ج٥، ص٣٢٤ .

وتكذيبهم لرسلهم، وتكبرهم عليهم، كدأب السور المكية في معالجة قضية الإيمان: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ ﴾.

وبنفس هذا الأسلوب جاءت آية سورة إبراهيم المكية: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ﴾.

وسواء أكان رد الأيدي معناه وضع الجارحتين المعروفتين على الفم ضحكاً وسخرية من قول الرسل أم استهزاءً بهم، أم أن المراد بالأيدي النعم، وردها أنهم رفضوا نعمة الإيمان التي جاءتهم بها رسلهم.

أقول: سواء أكان المراد هذا أم ذاك فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم ورفضوا دعوة الله تعالى[1].

ثم تتناول السورة موضوعاً هو في الغالب من أهم موضوعات السور المكية، وهو البعث، ونكران الكافرين له، وزعمهم أنهم لن يبعثوا فتؤكد الآيات بأنهم سيبعثون وسينبؤون بما عملوا وما ذلك على الله بعزيز.

قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾ [التغابن].

فهذا الأسلوب في مناقشة قضية البعث غالباً ما يكون في السور المكية. مثال ذلك ما نجده في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ ﴾.

---

(١) انظر: الجلالين حاشية الجمل، ج٢، ص ٥١٦ .

وفي سورة يس: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ومثال آخر من سورة المؤمنون: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

والأسلوب نفسه جاء في سورة ق: ﴿ قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾.

أكتفي بهذه الأمثلة التي تدل دلالة واضحة على أن سورة التغابن أسلوباً وموضوعاً، هي من السور المكية، ولقد مال إلى هذا الرأي سيد قطب، ومع ذلك فقد أخذ بالرأي القائل بأن السورة مدنية: يقول:

« هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وسياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها وبخاصة المقاطع الأولى منها. فلا يكاد الجو المدني يتبين إلاّ في فقراتها الأخيرة. والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾. تستهدف بناء العقيدة وإنشاء التصور الإسلامي في القلب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء»[1].

أقول: قد أوردت النص في شأن الآيات الاخيرة منها بأنها مدنية النزول.

يقول سيد: « ولقد وردت روايات أن السورة مكية، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجمتها، وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها، ولكني أبقيت اعتبارها مدنية مع الرأي الراجح فيها »[2].

---

(١) ج٨، ص ١١٩ ـ ١٢٠ من كتاب في ظلال القرآن.

(٢) ج٨، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

أقول: لقد بينت بالنص والموضوع أن الراجح عندي أنها مكية باستثناء الآيات التي نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي كما تقدم من قبل. ولم يبين الأستاذ سيد قطب، رَحِمَهُ اللَّهُ، الأمور التي دعته إلى ترجيح كون السورة مدنية .

سابعاً: سورة التطفيف:

هذه السورة من السور التي ورد الخلاف في زمان نزولها، وتعددت الروايات في ذلك، فهناك من قال إنها مكية، وهناك من قال إنها مدنية، ورواية أخرى قالت إنها نزلت بين مكة والمدينة. وآخرون قالوا بعضها مكي وبعضها الآخر مدني، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير إلاّ وذكر ما ورد فيها من خلاف دون ترجيح لرأي على آخر.

قال الخازن: مدنية في قول، ومكية في قول، وقيل: منها ثماني آيات مكية وهي من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴿٢٩﴾ ﴾[التطفيف] . إلى آخرها. وقيل منها آية مكية وهي قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾. وقيل: إنها نزلت بين مكة والمدينة[1].

وقال القرطبي: هي مكية في قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة.

قال صاحب « فتح الباري بشرح صحيح البخاري »: أخرج النسائي وابن ماجة بإسناد صحيح من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم النبي، ﷺ، كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾. فأحسنوا الكيل بعد ذلك »[2]. أ هـ.

قلت: قد يكون صدر هذه السورة نزل بالمدينة، وهو ما يتعلق بأمر المتلاعبين بالموازين الذين إذا اكتالوا من الناس يستوفون الكيل. وإذا كالوا الناس جاروا عليهم وطففوا الكيل.

---

(١) ج٦.
(٢) ج١، ص ٦٩٥ـ ٦٩٦ .

أما بقية موضوعات هذه السورة، فهي من صميم الموضوعات المكية. فهي تبين أعمال الفجار وأنها في أسفل السافلين وبالمقابل ترشد إلى أن صحائف الأبرار في أعلى عليين.

كما تصف نعيمهم في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم، وبتعبير آخر فهي تصف عذاب المجرمين ونعيم المتقين: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ ﴾ [التطفيف].

وفي مقابل هؤلاء تصور حال الأبرار: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ ﴾.

كما تصور حال المجرمين وهم يتغامزون ويتضاحكون استهزاء واستخفافاً بالمؤمنين وبالدين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ ﴾.

وهذه الصورة تجدها مذكورة في كثير من السور المكية، مثلاً في سورة ص المكية نجد قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤ ﴾.

إضافة إلى أن موضوعات هذه السورة هي موضوعات السور المكية كذلك: قصر الفاصلة وقوة العبارة مع الإيجاز. كل ذلك يجعلنا نرجح أن هذه السورة مكية باستثناء ما ذكرنا في شأن نزول صدرها.

ثامناً: سورة القدر:

وهي من السور التي ورد الخلاف في مكان نزولها، فقد حكى القرطبي،

وغيره رأي أكثر المفسرين على أنها مكية، وأسندوا هذا الرأي إلى عبد الله بن عباس وابن الزبير وعائشة، رضي الله عنهم.

وقال الزنجاني في « تاريخ القرآن »: إنها مكية وقد نزلت بعد سورة عبس[1].

والدارس لهذه السورة الكريمة يجد أن موضوعها الرئيس عن القرآن الكريم وبيان فضله، وأنه من عند الله ذي العظمة والسلطان وهذا الموضوع ـ ذكر القرآن والحديث عنه ـ وهو مما تناولته السور المكية كما بينت ذلك في المبحث الرابع من هذا الباب وعليه فإني أميل إلى أن هذه السورة الكريمة مكية.

تاسعاً: لم يكن:

هذه السورة من السور التي ورد الخلاف في زمان نزولها أكان بمكة قبل الهجرة أم بالمدينة بعدها ؟.

وجدت أكثرهم يذكر هذا الخلاف، ولم يتعرض إلى ترجيح رأي دون آخر ـ غيرابن كثير فقد جزم بأن هذه السورة مدنية، وأورد الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي حيث قال:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرنا علي هو ابن زيد عن عمار بن أبي عمار قال: سمعت أبا حبة البدري وهو مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب إلى آخرها قال جبريل:

يا رسول الله، إن الله يأمرك أن تقرئها أُبَـيَّاً. فقال النبي ﷺ لأُبي: إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة. فقال أُبي: وقد ذُكرتُ ثَمَّ يا رسول الله ؟ قال: نعم. قال: فبكى أُبي. هذا وقد ذكر الحديث بطرق أخرى »[2].

أما موضوع هذه السورة فهو غالباً موضوع السور المدنية حيث ذكر أهل الكتاب وكتبهم، وأنهم لم يختلفوا عن جهالة وغموض وإنما بعد أن جاءهم

---

(١) ص ٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٣٧.

العلم: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ [البينة].

عاشراً: سورة الزلزلة:

في الرواية المتقدمة عن قتادة أنها مدنية، وفي رواية ابن عباس أنها مكية، وهذا الخلاف قد سار عليه معظم المفسرين، غير ابن كثير فقد رأيته يجزم بأنها مكية. قال في تفسيره:

سورة إذا زلزلت وهي مكية[1]. ورغم أن ابن كثير لم يبين الدليل الذي استند عليه في قوله بأنها مكية إلاّ أن الناظر إلى موضوعها يرى فيها خصائص السور المكية إذ أنها تتحدث بأسلوب السور المكية كقصر الفواصل وإيجاز العبارة، وموضوعها هو موضوع القيامة، وما يترتب على قيامها من مواجهة الإنسان بعمله ومحاسبته على ما قدم، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه. ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.

وهذا الأسلوب والموضوع معاً من السمات البارزة في السور المكية.

حادي عشر: سورة الإخلاص:

سورة الإخلاص هذه أيضاً قد ورد الخلاف في زمان نزولها حيث ورد في الرواية السابقة أنها مدنية. وجاء في رواية ابن عباس. أنها مكية وهو الواضح من موضوع السورة بل وفي سبب نزولها على حسب ما أورده الترمذي حيث قال: حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو سعيد الصنعاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله، ﷺ، انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾.

وفي رواية أخرى: ذكر آلهتهم فقالوا انسب لنا ربك ؟. قال فأفتاه جبريل بهذه

---

(١) المصدر السابق نفسه، ج٤، ص ٥٣٨.

السورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[1]. فهذه واضحة الدلالة على أن السورة مكية.

ثاني عشر: المعوذتين:

ورد الخلاف فيهما أهما مكيتان أم مدنيتان: والجمهور على أنهما مدنيتان للحديث الوارد في ذلك: يقول الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير في مقدمته لتفسير المعوذتين: ذكروا في سبب نزول هذه السورة وحدها ثلاثة أسباب:

أحدها: أن جبريل، عليه السلام، أتاه وقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك فقال: إذا أويت إلى فراشك قل أعوذ برب السورتين.

ثانيها: أن الله تعالى أنزلهما عليه ليكونا رقية من العين. وعن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا: تعالوا نتوجع فنعين محمداً، ففعلوا ثم أتوه. وقالوا: ما أشد عضدك وأقوى ظهرك وأنضر وجهك فأنزل الله المعوذتين. قلت: فهذا الخبر يدل على مكيتيهما لكن الرازي، رحمه الله، قال:

ثالثهما: وهو قول الجمهور: جمهور المفسرين: أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر النبي، ﷺ، في إحدى عشرة عقدة ودسها في بئر يقال لها ذروان، فمرض رسول الله، ﷺ، واشتد عليه ثلاث ليال. فنزلت المعوذتان بذلك. وأخبره جبريل بموضع السحر. فأرسل علياً وطلحة وجاءا به. وقال جبريل للنبي، ﷺ، حل عقدة واقرأ آية. ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخفة والراحة »[2]. وذكر هذا الحديث البخاري في كتاب الطب ونصه:

« حدثنا عبد الله بن محمد قال سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول من حدث به ابن جريج يقول حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت: كان رسول الله، ﷺ، سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن . قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا.

---

(١) ج٥، ص ٤٥٢ .

(٢) ج٣٢، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

فقال: يا عائشة أعلمت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر ما بال الرجل؟ قال مطبوب. قال من طبه ؟ قال لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً. قال وفيم ؟ قال في مشط ومشاطة. قال وأين ؟ قال في جُفٍّ طلعة ذكر تحت رَعُوفة في بئر ذروان. قالت: فأتى البئر حتى استخرجه منه.

وفي رواية: ثم بعث رسول الله، ﷺ، علياً والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء البئر كأنه فقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الحق فإذا فيه مشاطة رأسه. وأسنان من مشطه. وإذا فيه وتر معقود فيه اثنتا عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فأنزل الله تعالى السورتين »[1]. انتهى.

وقال الرازي بعد أن بين أن المعتزلة ينكرون ذلك. « وبالجملة فالله تعالى ما كان ليسلط عليه إنساً ولا جناً ليؤذيه في دينه وشرعه ونبوته. فأما من الإضرار ببدنه فلا يبعد».

أقول: مما تقدم فإن سورتي المعوذتين تبين لنا أنهما مدنيتان، والله أعلم.

ترتيب الآيات والسور وأسمائها:

بعد هذا الذي قدمناه حول تعريف السورة، وبيان السور المكية والمدنية، وتحرير الخلاف الذي ورد على بعضها كان لا بد لنا من أن نتناول موضوعاً كثيراً ما تناوله العلماء، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب علوم القرآن إلا وتكلم عنه، ذلك هو ترتيب السور والآيات والسور وأسماء السور هل هو توقيفي من الشارع الحكيم، أم أنه باجتهاد من الصحابة، أم أن بعضه توقيفي والبعض الآخر اجتهادي ؟.

أجمعت الأمة على أن ترتيب الآيات في سورها على هذا النسق المعروف إنما كان بتوقيف من النبي،ﷺ، وليس للرأي فيه مجال. وذلك أن أمين الوحي جبريل كان عندما ينزل على النبي،ﷺ، بالآية أو الآيات يرشده إلى مكانها من

---

(١) انظر فتح الباري، ج١٠، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

سورها. فيأمر رسول الله،ﷺ، بالكاتب فيملي عليه ما أنزل. وكان يتلو القرآن أمام الصحابة، ويصلي به وربما صلى بالسورة أو السور؛ وقد نقل هذا كله بالطرق الصحيحة، فمن هذه النصوص ما جاء في مسند الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص. قال: كنت جالساً عند النبي،ﷺ، إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]. فهذا النص قد سمى الآية والسورة.

ومنها: ما أخرجه البخاري رضي الله عنه عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ [البقرة] نسختها الآية الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة] فلم تكتبها أو تدعها ؟. قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه.

ومنها: ما رواه الإمام مسلم رضي الله عنه عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله: قال: ما سألت رسول الله،ﷺ، عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة[1] حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: تكفيك آية الصَّيف التي في سورة النساء.

يعني بذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴿١٧٦﴾ ﴾. الآية.

فهذه النصوص وأمثالها تقطع بأن ترتيب الآيات كان بأمر النبي،ﷺ، فمن أنكر ذلك أو حاول تغييره يكون قد أنكر ما عليه الصحابة والمسلمون وخرج على ما عليه الأمة الإسلامية.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه« المعجزة الكبرى»: إن الآيات المكية كانت توضع في السور المكية، والمدنية كذلك توضع في السور المدنية إلا بعض ايات مدنية وضعت في سور مكية ـ ونبه إليها...ثم يقول: على ذلك انعقد الإجماع وكانت العرضة الأخيرة التي قرأ فيها النبي،ﷺ، على جبريل بترتيب

---

(١) هو من مات وليس له والد ولا ولد.

الآيات ذلك الترتيب. ومن أنكر أو حاول تغييره فقد أنكر ما عرف من الدين بالضرورة، وخرج عن إطار الإسلام، وحاول التغيير والتبديل.

فتلك الدعوات المنحرفة التي تدعو إلى ترتيب القران على حسب النزول أو على حسب الموضوعات هي خروج على الإسلام بينه بعض الذين لا يرجون للإسلام وقاراً. إذ يجعلون القران عضين. ويخالفون التنزيل ويعارضون الوحي وذلك خروج عن الإسلام[1].

أقول: بعد هذا الذي ذكرناه بشأن ترتيب الآيات، وبعد ما بينت بالدليل إجماع الأمة على أن ترتيبها تم بتوقيف من النبي،ﷺ، وأنه لا مجال للرأي فيه ننتقل إلى الموضوع الثاني وهو ترتيب السور فنقول:

بعد إجماع الأمة الذي تقدم على أن ترتيب الآيات قد تم بتوقيف النبي ﷺ،اختلفوا في ترتيب السور هل بأمر من رسول الله،ﷺ، أم باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم أم أن جزءا منه توقيفي والآخر اجتهادي ؟.

قال السيوطي في كتاب« أسرار ترتيب القران» تحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد عطا: قال: إن الإمام مالكاً والقاضي أبا بكر ـ هو الباقلاني ـ في أحد قوليه ـ وابن فارس قالوا: إن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور فمنهم من رتبها على حسب النزول كمصحف الإمام علي كرم الله وجهه فإن أوله كان اقرأ، ثم المدثر ثم«ن» ثم المزمل ثم«تبت» ثم التكوير، وهكذا إلى اخر المكي والمدني.

وكان أول مصحف ابن مسعود رضي الله عنه البقرة ثم النساء ثم ال عمران على اختلاف شديد. وكذا مصحف أبي وغيره[2].

فهذا الرأي قد جعل ترتيب السور كلها باجتهاد من الصحابة. والرأي الثاني أسنده السيوطي لابن عطية حيث قال:

---

(١) من كتاب المعجزة الكبرى ص٤٧.

(٢) ص٦٨ وأيضاً الإتقان ج١ ص٢١٦.

قال ابن عطية: إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي،ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل. وإن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة من بعده.

فهذا الرأي الذي قاله ابن عطية قد فصل في الأمر حيث جعل بعضا من السور مرتباً ترتيباً توقيفياً كالسبع الطوال والحواميم والمفصل. والبعض الآخر قد فوض النبي،ﷺ، الأمر فيه للأمة بعده..

أما الرأي الثالث فيقول: إن ترتيب السور على ما هي عليه الآن بتوقيف من النبي،ﷺ، ومن هؤلاء القاضي أبي بكر الباقلاني في أحد قوليه كما تقدم.

قال القرطبي في كتابه « الجامع لأحكام القران»:

ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد:« إن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثم فرق على النبي،ﷺ، في عشرين سنة وكانت السورة تنزل في أمر يحدث والآية جواباً لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول الله،ﷺ، على موضع السورة والآية فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام عن رب العالمين. فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والكلمات ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله،ﷺ، أخذ عنه هذا الترتيب وهو كما يقول: ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن. وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات[1].

ويقول الكرماني في كتابه «أسرار التكرار في القرآن»:

ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ وهو على هذا الترتيب وكان يعرض النبي،ﷺ، على جبريل ما اجتمع لديه منه وعرضه،ﷺ، في السنة التي توفي فيها مرتين....[2]

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٦٠ دار القلم.

(٢) أسرار التكرار ص٢٣ ط دار الاعتصام.

وذكر السيوطي قولاً لابن الحصار جاء فيه:

« ترتيب السور ووضع الآيات في موضعها إنما كان بالوحي»[1]

وقال أبو جعفر النحاس: المختار أن ترتيب السور على هذا من رسول الله،ﷺ، وأورد الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند ج٣ ص١٢٤ عن واثلة بن الأسقع.

ورواه الهيثمي في«مجمع الزوائد» ج٧ ص١٥٨ وعزاه للطبراني عن واثلة وأبي أمامة وهو: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال. وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل. فهذا الحديث يدل على أن ترتيب السور مأخوذ عن النبي ﷺ وأنه من هذا الوقت هكذا[2] وإلى هذا الرأي الأخير أميل وهو ما ترجح لدي.

أما أسماء السور: فقد تبين أن النبي ،ﷺ، كان يقول سورة كذا وكذا: ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله،ﷺ، يقول:« **اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران. فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة** ».

قال الخازن: قال معاوية بن سلام ـ بلغني أن البطلة السحرة. والزهراوان سميتا بذلك لنورهما، يقال لكل مستنير زاهر ـ غمامتان أو غيابتان. قال أهل اللغة: الغمامة والغيامة كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها. والمعنى: ثوابهما يأتي كغمامتين.

فرقان من طير: صواف. الفرقان: الجماعة من الطير والصواف جمع صافة، وهي التي تصف أجنحتها عند الطير.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق عصام فارس الحرستاني في ح١/ ٢١١ دار الجيل.

(٢) أسرار الترتيب ص٧٠.

قلت: في هذا الحديث دليل على جواز قول تسمية السورة بالبقرة وآل عمران، وكذا باقي السور وأنه لا كراهة في ذلك، وقد كرهه بعض المتقدمين، وقالوا السورة التي يذكر فيها البقرة.

قال الخازن:[1] والصواب هو الأول وبه قال الجمهور لورود النص به كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله،ﷺ،: لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة »وقال: لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة »، وفيها آية هي سيدة آي القرآن : آية الكرسي.

وفي تفسير« روح المعاني» للإمام الألوسي قال: سورة البقرة هذا هو الاسم المشهور. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هذا المقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. قال وهو معارض لما روي من منع ذلك. وتعين أن يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة. وكذا في سور القرآن كله.

ثم قال: ويمكن أن يوفق بأنه كان مكروهاً في بدء الإسلام لاستهزاء الكفار ثم بعد سطوع نوره نسخ النهي فشاع من غير نكير[2].

قلت: وقد تسمى السورة بأكثر من اسم، يقول الزركشي في« البرهان »: ينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سميت به. ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه. . . .

وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها.

وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد من كثير من أحكام النساء. . .فإن قيل قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى

---

(١) تفسير الخازن جـ ؟ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) ج١ ص٩٨.

عليهم السلام فلو اختص باسم هو وحده ؟ وما وجه تسميتها به وقصة نوح فيها أطول ؟ قيل: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء أكثر مما وردت في غيرها. ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكرره في هذه السورة. فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة مواضع. والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا.

وإن قيل: قد تكرر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها، وذلك أكثر من تكرار اسم هود. قيل: لما جردت لذكر نوح وقصته سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك، كانت أولى بأن تسمى باسمه عليه السلام من سورة تضمنت قصته وقصة غيره وإن تكرر اسمه فيها. أما هود فكانت أولى السور بأن تسمى باسمه عليه السلام[1] .

قلت: هذا ما ظهر لنا من السور وأسمائها والله الموفق .

---

(١) البرهان ج١ ص٢٧٠ ـ٢٧١ .

المبحث الخامس

في بيان الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية

قد تقدم في المبحث الرابع بيان السور المكية والمدنية وبيان السور المختلف في زمان نزولها وقد حررت الخلاف ورجحت بالأدلة ما يمكن ترجيحه، وظهر لي من خلال البحث أن هناك آيات مدنية في سور مكية وأخرى مكية في سور مدنية. ذلك أنه لايقصد بوصف السورة مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، بل قد يكون في المكية آيات مدنية وفي المدنية آيات مكية. لكن هذا الوصف من حيث الكثرة الكاثرة، فالحكم للأغلب باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع في السورة. وهذا يمكن ملاحظته في المصحف الشريف، فإنا نجد قولهم سورة كذا مكية إلاّ آية كذا وكذا، أو مدنية إلاّ ثلاث آيات منها. وإذن فالوصف بكون السورة مكية أو مدنية إنما هو على الغالب الأعم باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع. وإن تحديد أن هذه الآية مكية أو مدنية لا يتم إلا بمعرفة سبب نزولها، وهذا ـ أعني سبب النزول ـ لا يتم إلاّ بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها كما يقول الواحدي[1].

وقد تحريت في هذا المبحث الرواية الصحيحة في إثبات الآيات في سورها التي تنسب إليها، وهناك بيان لهذه الآيات في المصحف العثماني في بعض طبعاته، فكثيراً ما ذكر فيه أن سورة كذا مكية إلاّ الآيات كذا وكذا، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا، ولقد أخذ عن المصحف العثماني كثيرٌ ممن كتبوا في هذا الشأن .

وبرجوعي إلى كتب الحديث والسير والتفسير وعلوم القرآن، وجدت أن كثيراً مما ورد في بعض طبعات المصحف العثماني يعوزه الدليل، كما أن الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، رَحِمَهُ اللَّهُ، صاحب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ج٤، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

الكريم» قد سار على نهج المصحف العثماني ولذا فإن الاعتماد عليه في معرفة أن الآية مكية أو مدنية قد يوقع في الخطأ. فلابد من الرجوع إلى كتب الحديث والتفسير وكتب علوم القرآن والسير.

ولقد استفدت من كتاب « أسباب النزول » للواحدي النيسابوري، كما استفدت من « البرهان في علوم القرآن » للزركشي فقد أفرد لها مبحثاً في الجزء الأول. وكذلك كتاب الشيخ جلال الدين السيوطي « لباب النقول في أسباب النزول »، وكتاب « تاريخ نزول القرآن » للزنجاني، وقبل ذلك أيضاً فقد رجعت إلى كتاب « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » للبقاعي، بالإضافة إلى كتب التفسير كتفسير ابن كثير وغيره.

السـور المكيـة

سورة الفاتحة:

كلها مكية ولم يستثن منها شيء على حسب ما بينتُ في المبحث السابق.

سورة الأنعام:

جاء في المصحف العثماني أنها مكية إلاّ الآيات: ٢٠، ٢٣، ٩١، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، فمدنيات، وبالتتبع وجدت أن ابن كثير ذكر في تفسيره: أن هذه السورة مكية النزول بأجمعها وذكر عدة روايات منها:

١ـ ما أورده الطبراني عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون[1] بالتسبيح.

٢ـ ومنها: رواية أسماء بنت يزيد: قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي، ﷺ، وأنا آخذة بزمام ناقة النبي، ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة.

٣ـ ومنها: رواية السدي عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح

---

(١) يجأرون: يتضرعون بالدعاء إلى الله تعالى.

رسول الله، ﷺ، ثم قال شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق. ثم قال ابن كثير: صحيح على شرط مسلم.

٤ـ وعن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله، ﷺ، نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد، رواه الطبراني.

أما من قال إن بها آيات مدنية فقد عنى بذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير في تفسيره: قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير نزلت في قريش، واختار ذلك ابن جرير الطبري، وقيل ـ نزلت ـ في طائفة من اليهود.

يقول ابن كثير: والأوّل أصح ـ أي كونها مكية ـ نزلت في قريش، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد، ﷺ، لأنه من البشر كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء].

فهذه الآيات تكشف طبيعة قريش في إنكار الرسالات السماوية، وعلى ذلك تكون هذه الآية كغيرها مكية تنكر على قريش عدم تعظيمها لله حق التعظيم وإنكار الرسالات السماوية بقولهم ما أنزل الله على بشر من شيء ؟ فكان الرد عليهم: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال القرطبي: « قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وأن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى

المتكلمون أصول الدين »[1].

قلت: كونها أصل في محاجة المشركين فهذا صحيح أما قوله: وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة فغير مُسَلَّمٌ، لأن الموضوع الواحد قد يفرق في أكثر من سورة لحكمة قد نعرف بعضها وقد تغيب عنا، ويكفي في كون سورة الأنعام نزلت جملة واحدة ما ذكرنا من روايات.

ثم إن ابن جرير الطبري قد ذكر عدة أقوال مختلفة وقال: « وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: مشركو قريش، وذلك أن سياق الخبر عنهم اولاً، فإن يكن ذلك أيضاً خبراً عنهم أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولما يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلاً مع ما في الخبر عمن أخبر الله عنه في هذه الآية إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وزبور داود » ثم يقول: ولكني أظن أن الذين تأولوا ذلك خبراً عن اليهود، وجدوا قوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام]. فوجهوا تأويل ذلك إلى أنه لأهل التوراة، فقرؤوه على وجه الخطاب لهم، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولاآباؤكم، فجعلوا ابتداء الآية خبراً عنهم إذ كانت خاتمتها خطاباً لهم ـ عندهم ـ ثم يقول ابن جرير بعد ذلك:

« والأصوب في القراءة في قوله: يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، وأن يكون بالياء لا بالتاء على معنى اليهود يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، ويكون الخطاب بقوله قل: من أنزل الكتاب ؟ لمشركي قريش، وهذا هو المعنى الذي قصده مجاهد إن شاء الله في تأويل ذلك، وكذلك كان يقرأ ». أ هـ.
ويورد ابن جرير في ذلك رواية يقول: « حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد عن أيوب عن مجاهد أنه كان يقرأ هذا الحرف يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً »[2].

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٩٥ .
(٢) تفسير الطبري، المجلد ٧، ج٧، ص ٢٦٨، ط. البابي الحلبي .

قلت: مما تقدم من الأدلة التي بينها ابن جرير الطبري ومناقشته للقراءة وتوجيه كلاً من القراءتين فإنني أميل إلى أن الآية مكية وبالتالي كل سورة الأنعام مكية.

« وفي التفسير الكبير » لفخر الدين الرازي نجده يعرض لهذه الآية الكريمة التي أشكلت على الكثير من العلماء وبعد أن أورد عدة آراء وصف البحث فيها بأنه « بحث صعب ».

ثم أورد اعتراض من قال إن هذه الآية يبعد أن تكون نزلت بشأن قريش، ذلك أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء، فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى؟.

قال الرازي: بقى أن يقال: كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء عليهم، فكيف يمكن إلزامهم نبوة موسى عليهم ؟ وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش، وإنما يليق باليهود وهو قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴿٩١﴾ ﴾ [الانعام]. فمن المعلوم بالضرورة أن هذه الأحوال لا تليق إلاّ باليهود، وهو قول من يقول: إن أول الآية خطاب مع الكفار وآخرها خطاب مع اليهود ـ فاسد ـ لأنه يوجب تفكيك نظم الآية، وفساد تركيبها وذلك لا يليق بأحسن الكلام فضلاً عن كلام رب العالمين. وبعد أن قرر هذا الإشكال أجاب بقوله:

أما السؤال الأول: فيمكن دفعه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود والنصارى، وكانوا يسمعون من الفريقين، فعلى سبيل المثال ينكرون ظهور المعجزات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، مثل انقلاب العصا ثعباناً، وفلق البحر وإظلال الجبل وغيرها، والكفار كانوا يطعنون في نبوة محمد، ﷺ، بسبب أنهم كانوا يطلبون منه أمثال هذه المعجزات، وكانوا يقولون لو جئتنا بأمثال هذه المعجزات لآمنا بك جارياً مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى، عليه السلام، وإذا كان الأمر كذلك لم يبعد إيراد موسى عليه السلام إلزاماً عليهم في قولهم ما أنزل الله على بشر من شيء.

وأما الثاني فجوابه: أن كفار قريش واليهود والنصارى لما كانوا مشتركين في إنكار نبوة محمد، ﷺ، لم يبعد أن يكون الكلام الواحد وارداً على سبيل أن

يكون بعضه خطابا مع كفار مكة وبعضه يكون مع اليهود والنصارى. . .[1].

قلت: لم يكن القرشيون في مكة بمعزل عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد كانت السفارات بينهم متواصلة واستفسارات كفار قريش لليهود كثيرة فلا يستبعد معرفتهم برسالة موسى ولا عيسى ولا غرابة، إذ أنهم استكفوا بهذا الجواب المفحم حين أنكروا أن يكون الله تعالى قد أنزل الكتاب على بشر ـ فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

وفي كتاب« نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للإمام المفسر برهان الدين البقاعي نجده في تفسير هذه الآية يقول: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴿٩١﴾ ﴾ أي اليهود والآية مدنية، وقريش على صلة باليهود واستفسارهم عن أمر رسول الله، ﷺ، وهذا اعتراف منهم برسالة موسى، وهذا يؤدي إن الخطاب كان لهم حينما سُئلوا عن من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ؟.[2]

وقال صاحب تفسير المنار بعد أن أورد ما ذكره ابن جرير الطبري، وأورد آراء الإمام الرازي المتقدمة قال: والذي يتجه عليه قولنا إن الآية نزلت في ضمن السورة بمكة كما قرأها ابن كثير وأبو عمرو محتجة على مشركي مكة الذين أنكروا الوحي استبعاداً لخطاب الله للبشر، باعترافهم بأنهم أهل الكتاب الأول العالمين بأخبار الأنبياء، فهو تعالى يقول لرسوله، ﷺ، :« قل » لهؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره من قومك، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ـ كقولهم ـ أبَعثَ الله بشراً رسولاً، من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً، انقشعت به ظلمات الكفر والشرك الذي ورثه بنو إسرائيل عن المصريين، وهدى الناس أي الذين أنزله عليهم أخرجوا من الضلال بما فيه من الأحكام والشرائع التي أنشأتهم خلقاً جديداً فكانوا معتصمين بالحق مقيمين للعدل، إلى أن اختلفوا فيه ونسوا حظاً مما ذكروا به، فصاروا باتباع الأهواء يجعلونه قراطيس يبدونها عند الحاجة إذا استُفتي الحبر من أحبارهم في مسألة له هوى في إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم في

---

(١) التفسير الكبير ج١٢ ص٦٢، ٧٦ ط. أولى ـ المطبعة البهية ـ مصر .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ط. دار المعارف العثمانية حيدر أباد ج ٧، ص١٨٢.

قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما. فأظهره للمستفتين ولخصومه، ويخفون كثيراً من أحكام الكتاب وأخباره إذا كان لهم هوى في إخفائها ـ وذلك إن الكتاب كان بأيديهم ولم يكن بأيدي العامة من نسخه شيء وهذا الإخفاء للنصوص في الوقائع غير ما نسبه متقدمو اليهود من الكتاب بضياعه عند تحرير القدس وإجلائهم إلى العراق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة]. . . ثم يقول:

والظاهر إن هذه الآية كانت تقرأ هكذا بمكة، وكذا بالمدينة إلى أن أخفى أحبار اليهود حكم الرجم بالمدينة. وأخفوا ما هو اعظم من ذلك، وهو البشارة بالنبي، ﷺ، وكتمان صفاته عن العامة وتحريفها إلى معاني أخرى للخاصة، وإلى أن قال بعضهم ما أنزل الله على بشر من شيء، كما قال المشركون من قبلهم ـ إن صحت الروايات في ذلك ـ فلما كان ذلك كله كان غير مستبعد ولا مخل بالسياق أن يلفت الله تعالى رسوله بأن يقرأ هذه الجمل في المدينة على مسمع اليهود وغيرهم بالخطاب لهم فيقول:

وتجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً. مع عدم نسخ القراءة الأولى. وبهذا الاحتمال المؤيد بما ذكر من الوقائع يتجه تفسير القراءتين بغير تكلف بما يزيل كل إشكال عرض للمفسرين في تفسيرهما[1].

قلت: إن الذي جاء به صاحب تفسير المنار هو أن النبي، ﷺ، قرأ بالرواية الأولى بـ « الياء » في مكة وبالثانية بـ « التاء » وهو في المدينة بعد الهجرة والروايتان ثابتتان. وهو متجه حميد لتوجيه القرآنين.

ويقول سيد قطب، رحمه الله، في كتاب في ظلال القرآن: بعد أن ذكر الروايات المتقدمة، وذكر قول من قال إن الآية مدنية، قال: الرواية الأولى محتملة بسبب أن فيها ذكر الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، ومواجهة لليهود في قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام].

ثم قال: وإن كان هناك روايات أخر عن مجاهد وعن ابن عباس أن الذين

---

(١) تفسير المنار، ج٧، ص ٦١٧ .

قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء هم مشركو مكة ولأن الآية مكية. ثم ذكر القراءة الأخرى التي ذكرها ابن جرير الطبري والتي تقدم ذكرها وبناء على ذلك قال:

لهذا كله نحن نميل إلى أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة، وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد رواية بذلك، وفي الرواية عن أسماء تأكيد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي: قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي، ﷺ، جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي، ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظم الناقة.

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال: حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلة جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. هاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية. والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب إن هذه السورة نهر يتدفق أو سيل يندفع بلا حواجز ولا فواصل. وإن بناءها ذاته ليصدق تماماً هذه الروايات أو على الأقل يرجحها ترجيحاً قوياً[1].

أقول: بعد هذا الذي أوردته من الروايات المختلفة وأقوال المفسرين وبعد بيان القراءة التي ذكرها ابن جرير الطبري وتوجيهها وما ذكره البقاعي والشيخ رشيد رضا وأخيراً رأى الأستاذ سيد قطب، فإني أميل إلى ترجيح أن سورة الأنعام مكية كلها، والله أعلم.

سورة الأعراف:

مكية استثني منها في المصحف العثماني الآيات من ١٦٣ ـ ١٧٠ أي من قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ

(١) في ظلال القرآن، ج٧، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

ولم أجد لهذا الاستثناء أي سند من أي رواية تؤيد ذلك غير ما ذكره سيد قطب في تفسير هذه الآية قال: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾، يقول: يعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله، ﷺ، في المدينة.

والآيات من هنا إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴿١٧١﴾ ﴾. آيات مدنية نزلت في المدينة لمواجهة اليهود فيها وضمت إلى هذه السورة المكية في هذا الموضع تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى.

يأمر الله رسوله، ﷺ، أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ويذكرهم بعصيانهم القديم وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا. . .

قلت: وهذا الاتجاه في المواجهة بين الرسول، ﷺ، وبين يهود المدينة يجعلني أميل إلى أن هذه الآيات مدنيات.

سورة هود:

مكية غير الآية الكريمة: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

قال الواحدي في أسباب النزول: أخبرنا الأستاذ أبو منصور البغدادي قال: أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال: حدثنا إبراهيم بن علي قال: حدثنا يحيى بن يحيى قال: حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله، قال:

جاء رجل إلى النبي ، ﷺ، فقال: يارسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن آتيها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت.

قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك فلم يرد عليه النبي، ﷺ، فانطلق الرجل ـ فاتبعه رجلاً دعاه فتلا عليه هذه الآية. فقال رجل: يارسول الله

هذا له خاصة قال: لا بل للناس كافة[1] رواه مسلم عن يحيى والبخاري عن طريق يزيد بن زريع.

ورواية البخاري المشار إليها هي: قال: حدثنا مسدد حدثنا يزيد هو ابن زريع حدثنا سليمان التميمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له فأنزلت عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾. قال الرجل: إليَّ هذه ؟ قال: لمن عمل بها من أمتي[2]. فهذا يدل على أن هذه الآية مدنية النزول.

سورة يوسف:

جاء في المصحف أنها مكية إلا الآيات ١، ٢، ٣، ٧. قال السيوطي في الاتقان: استثني منها ثلاث آيات في أولها، حكاه أبو حيان، وهو واهٍ جداً لا يلتفت إليه[3].

والآيات المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

وإضافة إلى ما ذكره السيوطي يعني أن ما ذكره أبو حيان واه جداً لا يلتفت إليه يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند تفسيره لسورة يوسف: هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط. وما قيل من أن الثلاث الأُول منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه ويخل بنظم الكلام. وبعد أن ذكر رأي السيوطي الذي أوردته قبل قليل قال: ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المصري ويزاد عليه الآية السابعة من تفسير المنار ج ص٢.

كما وجدت الأستاذ سيد قطب يقول: هذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٨٠.
(٢) البخاري ج٦ ص٩٤ وفي مسلم ج٤ ص٢١١٦.
(٣) ج١ ص١٥.

بعدها مباشرة من المبدأ في قصة يوسف، عليه السلام، ونص الآية التالية في السياق هو: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

ثم تمضي القصة بعد ذلك في طريقها إلى النهاية. فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾، يبدو هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصة.

وكذلك هذه الأحرف المقطعة« الر» وتقرير أنها آيات الكتاب المبين، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً، هو كذلك من جو القرآن المكي، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذي كانوا يدعون أن أعجمياً يعلمه لرسول الله، ﷺ، وتقرير أنه وحي من الله كان النبي، ﷺ، من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته، ثم إن هذا التقديم يتناسب مع التعقيب على القصة في نهايتها وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فهناك حكمة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب.

أما الآية السابقة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلاً ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت في مكة وهي ليست من سياقها ثم أضيفت إليها في المدينة، ذلك أن في الآية الثامنة ضميراً يعود على يوسف وأخوته في هذه الآية السابقة ـ بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابعة، وهذا نصها: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معاً في سياق السورة الموصول. والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضح في موضوعها وفي جوهرها وفي ظلالها وفي اتجاهها[1].

---

(١) ج١٢ ص٦٥٩ ـ ٦٦٠.

قلت: أكتفي بهذا في بيان أن سورة يوسف كلها مكية ولا سند لاستثناء ما استثنى منها من آيات، والله أعلم.

سورة إبراهيم:

مكية إلا آيتين منها هما قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قال ابن جرير الطبري:

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: أخبرني محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار[1] قال: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا من قريش: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾.

وذكر القصة من طريق آخر في نفس الصفحة السابقة: قال: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال مجاهد: وأحلوا قومهم دار البوار: قال أصحاب بدر.

وقال أيضاً: حدثني المثنى قال: حدثني عمرو بن عون قال: أخبرنا هشيم عن جويبر عن الضحاك قال: هم كفار قريش ممن قتل ببدر.

قلت: من هنا يتضح لنا أن هاتين الآيتين من هذه السور المكية قد نزلتا بالمدينة لأن غزوة بدر إنما وقعت في السنة الثانية من هجرة النبي، ﷺ.

سورة الحجر:

كلها مكية وقد اختلف في الآية الكريمة منها وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾. فقال: قال بعضهم بأنها مدنية، ولقد ورد هذا الاستثناء للآية أيضاً في المصحف.

وقد بسطت البحث فيها عند الكلام على سورة الفاتحة في المبحث الرابع

---

(١) تفسير ابن جرير ج٨ ص١٤٨.

ولقد رجحت بالأدلة أنها مكية وبالتالي فالسورة كلها مكية.

سورة النحل:

هذه السور مكية إلا ثلاث آيات في آخرها هي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾. فقد ورد أنها نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عقب وقعة أحد.

قال ابن جرير في جامع البيان في الجزء الرابع عشر:

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة وهي مكية إلا ثلاث آيات في آخرها نزلت في المدينة بعد أحد حيث قتل حمزة ومثل به فقال رسول الله، ﷺ: لئن ظهرنا عليهم لتمثلن بثلاثين رجلاً منهم. فلما سمع المسلمون بذلك قالوا: والله لَئن ظهرنا عليهم لنُمثِلَنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ إلى اخر السورة[1].

وجاء في سنن الترمذي كتاب التفسير:

قال: حدثنا أبو عمار، حدثنا الفضل بن موسى عن عيسى بن عبيد عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية قال: حدثني أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة فمثلوا به فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين[2] عليهم، قال: فلما كان يوم فتح مكة ، أنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾. فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله، ﷺ: كفوا عن القوم إلا أربعة. قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب.

---

(١) تفسير ابن جرير ج١٤ ص ١٣٢ ط. بولاق.

(٢) أي: لنزيدن في التمثيل بقتلاهم.

قلت: فرواية ابن جرير أن الآية نزلت عقب أحد، وعلى هذا جمهور المفسرين. وفي رواية الترمذي أنها نزلت يوم فتح مكة، وسواء كان يوم أحد نزولها أم يوم فتح مكة فهي في الحالتين مدنية، وعليه تكون سورة النحل مكية باستثناء هاتين الآيتين.

سورة الإسراء:

هذه السورة مكية النزول وقد ذكرت بعض الروايات أن فيها آيات مكية. من ذلك ما جاء في المصحف. وما اعتمد عليه كثير ممن كتب في هذا الشأن كالزنجاني في تاريخ القرآن، ومحمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ فمن تلك الآيات التي استثنى كونها مدنية قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

ولم أجد ما يؤيد أن هذه السورة مدنية إلا ما أورده ابن كثير في تفسيره وأنكره، حيث قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب: حدثنا أبو يحيى التميمي حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال: لما نزلت: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴿٢٦﴾ ﴾ دعا رسول الله، ﷺ، فاطمة فأعطاها فدك ثم قال ـ أي البزار ـ لا نعلم من حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبا يحيى التميمي وحميد بن حماد بن الخوار وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده لأن الآية مكية، وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا، فهو إذاً حديث منكر والأشبه أنه من وضع الرافضة والله أعلم.

قلت: مما تقدم يتبين لنا أن الآية الكريمة تبعاً لسورتها مكية النزول إنما جاءت هذه الآية الكريمة ضمن عدد من الأيات التي تحمل القواعد العامة التي أرسيت في المجتمع المكي، كما وضحت ذلك في المبحث السادس من هذا الباب.

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣٠٠.

ومن هذه الآيات التي قيل إنها مدنية هذه الآيات الكريمة: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

قال ابن كثير: قيل نزلت في اليهود إذ شاروا على رسول الله، ﷺ، بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة. ثم قال ابن كثير: وهذه القول ضعيف لأن هذه الآية مكية ـ وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل نزلت في تبوك وفي صحته نظر.

وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنيم أن اليهود أتوا رسول الله، ﷺ، يوما فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقا إنك نبي فالحق بالشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه ايات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأسراء] إلى قوله: ﴿ تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأسراء].

فأمره بالرجوع إلى المدينة. وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث. قال ابن كثير: وفي هذا الأسناد نظر! والأظهر إن هذا ليس بصحيح. فإن النبي، ﷺ، لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة]. وغزاها ليقتص وينتقم من قتل أهل مؤتة من أصحابه[1].

قلت: إن هذه الرواية التي أوردها البيهقي تحمل عوامل فسادها بين طياتها، إذ معنى ذلك أن النبي، ﷺ، يتلقى أوامر الدعوة من اليهود وهذا عين الفساد. كيف وهو الذي أخبره الله تعالى بنوايا اليهود وتدابيرهم ضد الإسلام وبني الإسلام. قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣.

أَشْرَكُوا۟ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة].

وهو المخاطب من قبل الله تعالى بشأن أهل الكتاب عامة: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

كما أنه خوطب بالنهي الصريح بعدم إطاعتهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب].

أما آية الإسراء التي معنا فأصح ما ورد في سبب نزولها هو ما أورده السيوطي في «لباب النقول في أسباب النزول»حين قال: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الإسراء] أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق إسحاق عن محمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش فأتوا رسول الله،ﷺ.، فقالوا: يا محمد تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه فرق لهم فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴿٧٣﴾ ﴾ إلى ﴿ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

قال السيوطي: قلت هذا أصح ما ورد في سبب نزولها![1].

أقول: مما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات مكية تبعاً لسورتها إذ أنه لم يؤيد قول من قال إنها مدنية نص صحيح بل إن النص الصحيح جاء يبين أنها مكية.

آيـة الروح:

ومن هذه الآيات التي ورد استثناؤها من هذه السورة المكية آية الروح وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾. فقد جاء في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» كتاب التفسير باب ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].

قال: حدثنا عمرو بن غياث حدثنا أبي قال: حدثنا الأعمش قال: حدثني إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ قال: بينما أما مع النبي،ﷺ، في حرث ـ وهو متكىء على عسيب، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض ـ سلوه

---

(١) أسباب النزول ص٨.

عن الروح ـ فقال ما أرابكم إليه ـ ما حاجتكم إليه ـ وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ـ فقالوا سلوه عن الروح فأمسك النبي،ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

قال ابن حجر: ولابن مردويه من وجه آخر عن الأعمش« في حرث للأنصار» وهذا يدل على أن نزول الآية وقع بالمدينة، لكن روى الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴿٨٥﴾ ﴾.

قال: ورجاله رجال مسلم، وهو عند ابن إسحاق من وجه آخر عن ابن عباس نحوه ـ ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك[1].

قلت: ووجدت ابن كثير أيضاً يجمع بين الحديثين أي سبب النزول الذي ورد بشأن سؤال مشركي مكة لليهود ثم سؤالهم بعد توجيه اليهود لهم للرسول،ﷺ.

والسبب الذي ذكر بشأن سؤال اليهود للرسول في المدينة بتعدد النزول... وعلى ذلك فالآية مكية تكرر نزولها في المدينة.

سورة الكهف:

مكية إلا قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ومن قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴿٨٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ استثنيت هذه الآيات في المصحف على اعتبار أنها مدنيات، وسار على نهج المصحف الزنجاني في كتابه «تاريخ القرآن» والأستاذ محمد فؤاد

---

(١) فتح الباري ج٨ ص٤٠١.

عبد الباقي في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

وبرجوعي إلى كتب التفسير وكتب أسباب النزول وجدت أن الإمام فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» يقول: اعلم أن من هذه الآية: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة، وذلك أن أكابر قريش احتجوا وقالوا لرسول الله، ﷺ، إن أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك. والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل. ثم إنه تعالى جعل الأصل في هذا الباب شيئاً واحداً، وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه إليه وعلى العمل به وألا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين... ثم يقول: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴿٢٨﴾ ﴾. ففي تلك الآية نهى الرسول، ﷺ، عن طردهم وفي هذه أمره بمجالستهم والمصابرة معهم.[1]

قلت: ويؤيد ما ذهب إليه الرازي، رحمه الله، ما أخرجه مسلم في صحيحه في الجزء الرابع كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: حدثنا زهير بن حرب حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد: فيَّ نزلت: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام][2]

وفي رواية أخرى قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن إسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: كنا مع النبي، ﷺ، ستة نفر فقال المشركون للنبي، ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترءون علينا، قال: كنت وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام][3].

---

(١) التفسير الكبير ج١١، ص ١١٥.

(٢) ص ١٨٧٨.

(٣) ج٤، ص ١٨٧٨.

ويقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة »:

« ثم سعى رؤساء المشركين إلى رسول الله، ﷺ، أن ينحي هؤلاء الأعبد فإنه يؤذينا أرواح جبابهم إذا جلسنا إليك وحادثناك فقال، ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين». فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقمهم معك إذا شئت قال: نعم، طمعاً في إيمانهم فقد كان، ﷺ، حريصاً على ذلك غاية الحرص حتى همّ الرسول، ﷺ، أن يكتب لهم بذلك كتابا؛ فأنزل الله عتابا هذه الآيات التي تدل على منزلة هؤلاء الفقراء والأعبد وجاههم عند ربهم قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام]. فكان رسول الله، ﷺ، إذا لقيهم عانقهم وقال: « أهلاً بمن عاتبني الله فيهم » وكان إذا جلس معهم يدنوا منهم حتى تمس ركبته ركبهم فإذا أراد القيام قام عنهم وتركهم. فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1] [الكهف].

قلت: فهذه الأحاديث والأراء التي سقناها تبين أن هذه الآيات تبعاً لسورتها مكية النزول ولا حجة لمن قال إن هذه الآيات نزلت في شأن المؤلفة قلوبهم في المدينة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]. هذه الآيات جاء في المصحف العثماني أنها مدنيات ولم أجد سنداً لذلك من رواية صحيحة بل وجدت ابن كثير يقول:

وقد أورد ابن جرير والآمدي في مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف عن عقبة ابن عامر أن نفراً من اليهود جاءوا يسألون النبي، ﷺ، عن ذي القرنين فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم وأنه بنى الإسكندرية وأنه علا به ملك إلى السماء، وذهب به إلى السدود أن أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب.. ثم قال ابن كثير: وفيه طول ونكارة ورفعه لا يصح وأكثر ما

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج ١، ص ٣٣٦.

فيه من أخبار بني إسرائيل[1].

وأصح ما جاء في سبب نزول هذه الآيات هو ما ذكره ابن إسحاق وأثبته ابن كثير في تفسيره عند تفسيره سورة الكهف حيث قال: ذكر ابن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال: .. حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة فقالوا سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ـ فخرجا حتى أتيا المدينة. فسألا أحبار يهود عن رسول الله، ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التورات وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ـ قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلاّ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم. فإنهم قد كان لهم حديث عجيب.

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح ماهو ؟.

فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاؤوا رسول الله، ﷺ، فقالوا:

يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله، ﷺ: « أخبركم غداً عما سألتم » ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله، ﷺ، خمس عشرة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل، عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة. وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبر أهل مكة.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص ١٠٠.

وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبر بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله، ﷺ، مكث الوحي عنه وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاء جبرائيل، عليه السلام، من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف. فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1] [الإسراء].

فهذه الرواية تبين أن هذه الآيات جواباً لسؤال القرشيين الذين تلقوه من اليهود بالمدينة وجاءوا به إلى قومهم في مكة حيث وجهوه إلى رسول الله، ﷺ. وعليه فالآيات مكيات وإذاً فسورة الكهف كلها مكية.

سورة مريم:

قد تقدم أنها من السور المكية، غير أن بعضهم استثنى منها قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم].

كما هو مبين في المصحف العثماني ـ على أنهما مدنيتان. في تتبعي لهذا الرأي لعلي أجد ما يؤيد ذلك من أثر صحيح وجدت في كتاب الإتقان في علوم القرآن أن الإمام السيوطي، رحمه الله، يقول: استثنى منها آية السجدة وقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾. وهذه دعوى ليس لها دليل[2].

قلت: أميل إلى أن هاتين الآيتين مكيتان تبعاً للسورة التي نسبا إليها. ولأني لم أجد ما يؤيد كونهما مدنيتان. وعليه فإن سورة مريم كلها مكية...

سورة طه:

استثنى منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) تفسير بن محمد، ج٣، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) ج١، ص١٥.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه].

قال الواحدي النيسابوري في كتاب أسباب النزول: قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾. الأية: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الثعلبي قال أخبرنا شعيب بن محمد البيهقي قال أخبرني مكي بن عبدان قال حدثنا الأزهر قال حدثنا روح عن موسى عن عبيدة الرندي قال أخبرني يزيد بن عبد الله بن فضيل عن أبي رافع مولى رسول الله، ﷺ:

إن ضيفاً نزل برسول الله، ﷺ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً، يقول لك محمد رسول الله، ﷺ: نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذي نصلحه، فبعنى كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب. فقال اليهودي: لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن. قال فرجعت إليه فأخبرته. قال والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض. ولو سلَّفني أو باعني لأديت إليه، اذهب بدرعي، ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾. الآية.

وذكر هذا الحديث أيضاً السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول حين قال: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية. أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والبزار وأبو يعلى عن رافع: قال أضاف النبي، ﷺ، ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب. فقال: إلاّ برهن. فأتيت النبي، ﷺ، فأخبرته. فقال أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض. فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾.

قلت: فسورة طه باستثناء هذه الآية مكية كما تقدم.

سورة الحج:

تقدم في المبحث السابق من أن هذه السورة قد اختلف فيها هل هي مكية أم مدنية. وإنني من خلال بحثي رجحت أنها مكية ولكن بها آيات مدنيات منها قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]. وذلك لما أخرجه البخاري، رضي الله عنه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال هذا دين صالح. وإن لم تلد

امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء . . . ومنها قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج].

وذلك لما اخرجه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي ذر، رضي الله عنه، أنه كان يقسم فيها أن هذه الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾. نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر[1].

وأخرجه أيضاً بطريق آخر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال إني أوَّلُ من يجثوا بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

قال قيس: قيس بن عباد ـ وفيهم نزلت: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ قال هم الذين بارزوا يوم بدر: عليٌ، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[2].

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج].

فقال الترمذي في سننه: حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج النبي، ﷺ، من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، ليهلكن، فأنزل الله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج]. فقال أبو بكر لقد علمت أنه سيكون قتال. قال الترمذي حديث حسن[3] فهذه الآيات

---

(١) الآيات من ١٩ ـ ٢٢ .

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص ١٢٤ .

(٣) ج٥، ص٣٢٥ .

من سورة الحج مدنيات وباقي السورة على الراجح مكي.

سورة الفرقان:

تقدم أنها مكية ـ ولكن استثنى منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾. كما هو في المصحف وسار على نهج المصحف الزنجاني في تاريخ القرآن والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. ولم أجد أثراً يؤيد ذلك، بل وجدت الرواية الصحيحة تؤيد أن هاتين الآيتين مكيتان. فقد أخرج البخاري في صحيحه[1] قال:

حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرني القاسم بن أبي بَزّة أنه سأل سعيد بن جبير هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ فقرأت عليه: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾. فقال سعيد قرأتُها على ابن عباس كما قرأتَها عليَّ فقال هذه آية مكية نسختها آية مدنية في سورة النساء.

قلت: يعني بالآية المدنية التي في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء].

وجاء بلفظ آخر: قال حدثنا سعد بن حفص حدثنا شيبان عن منصور عن سعيد بن جبير قال: قال ابن أبزى: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾. وقوله: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾. حتى بلغ إلاّ مَنْ تاب ـ فسألته، فقال لما نزلت قال أهل مكة: فقد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وأتينا الفواحش. فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

---

(١) ج٦، ص ١٣٨ .

رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الفرقان].

وأيضاً ورد من طريق آخر في البخاري قال: حدثنا عبدان، أخبرنا أبي عن شعبة عن منصور عن سعيد بن جبير قال أمرني عبد الرحمن بن أبْزَى أن أسأل ابن عباس عن هاتين الآيتين: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ فسألته فقال لم ينسخها شيء. و﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾. قال نزلت في أهل الشرك[1].

قلت: فهذه الآثار تثبت أن هاتين الآيتين نزلتا بمكة تبعاً للسورة وإذاً إن سورة الفرقان مكية كلها من غير استثناء فيها.

سورة الشعراء:

قد مرّ أن سورة الشعراء من السور المكية، غير أن المصحف العثماني قد استثنى الآية الكريمة: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾[2] إلى آخر السورة.

بالنسبة للآية الأولى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾. فإني لم اعثر على قول واحد صحيح من صحابي أو تابعي يشير إلى ذلك. ثم نظرت فوجدت ان هذه الآية الكريمة من هذه السورة ضمن آيات تتكلم عن القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء].

فإننا لا نستطيع من غير سند صحيح أن نقلع هذا النص من جوه الذي نزل فيه بل نبقيه تبعاً للسورة التي هو فيها وهي مكية.

أما قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾. إلى آخر السورة، فوجدت أن السيوطي في أسباب النزول، قد ذكر رواية عن ابن عباس وأخرى عن عروة بن الزبير تشير إلى أن هذه الآيات مدنيات. قال، رَحِمَهُ اللَّهُ: أخرج ابن جرير وابن أبي

---

(١) ج٦، ص ١٥ .

(٢) الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله، ﷺ، أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ الآيات.

ثم قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه، واخرج - أي ابن أبي حاتم - عن عروة قال:

لما نزلت ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ ﴾ قال: عبد الله بن رواحة قد علم الله أني منهم، فأنزل الله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ إلى آخر السورة[1].

وجاء في تفسير الطبري عن أبي الحسن البراد. قال لما نزلت ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ الآية. جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فقالوا يا رسول الله: والله لقد أنزل هذه الآية وهو يعلم أننا شعراء. هلكنا. فأنزل الله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. الآية. فدعاهم رسول الله، ﷺ، فتلاها عليهم[2].

قلت: هذه الروايات التي تقدمت بشأن سبب نزول هذه الآيات تؤيد أنها مدنيات مستثنات من هذه السورة المكية.

سورة القصص:

هذه السورة الكريمة قد تقدم أنها مكية. سوى آيات منها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص].

فذكروا أنها نزلت في أهل الكتاب، وهي مستثناة في المصحف العثماني كما ذهب إلى ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان: وأنه نزلت في أهل الكتاب قال: حدثني محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم قال حدثنا عيسى

---

(١) أسباب النزول ١٦٤.

(٢) تفسير ابن جريج، ج٩، ص ٨٠.

وحدثني الحارث قال حدثني الحسن قال حدثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. في مسلمة أهل الكتاب .

وقال في رواية أخرى بنفس الصفحة: قال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أن يحيى بن جعدة أخبره على بن رفاعة ـ يعني رفاعة القرظي ـ قال خرج عشرة رهط فاؤذوا فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ـ قبل القرآن ـ

وذكر النيسابوري في كتابه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » قال: قال قتادة إنها نزلت في أناس من اهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها، فلما بعث الله محمداً آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام ـ وقال: قال مقاتل: نزلت في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من أرض الحبشة في السفينة وثمانية جاءوا من الشام[1].

ثم أورد حديث رفاعة القرظي المتقدم وعقب عليه بقوله: والتحقيق إن كل من حصل في حقه هذه الصفة يكون داخلاً في الآية لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قلت: من الروايات المختلفة التي تقدمت تبين لنا أن هذه الآيات مدنية النزول، وهي مستثناة من سورة القصص المكية.

سـورة العنكبوت:

وهي مكية باستثناء آيات من صدرها أي من أولها حتى قوله: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾[2] فقد ذكر بأنها مدنيات. قال السيوطي في أسباب النزول: أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾ الآية قال: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام. فكتب إليهم أصحاب رسول الله، ﷺ، من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا. فخرجوا عامدين إلى المدينة، فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه قد نزل

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان .

(٢) الآيات من ١ ـ ١١ .

فيكم كذا وكذا ـ فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه. فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا . . .

قال السيوطي أيضاً ـ وأخرج: أبي بن حاتم ـ عن قتادة قال: أنزلت: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾. في أناس من اهل مكة خرجوا يريدون النبي، ﷺ، فعرض لهم المشركون، فرجعوا فكتبوا إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص. فنزل فيه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت].

ويذكر آخرون أن هذه الآيات نزلت بشأن عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الإسلام. وهذا معناه ـ إن صح مكية من جملة السورة المكية. ذكر ذلك الطبري حيث قال: حدثنا القاسم قال حدثنا الحسيني قال حدثني حجاج عن ابن جريج قال سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير يقول نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الإسلام. لكن الطبري نفسه أورد الحديث الذي ذكره السيوطي والخاص بأن هذه الآيات نزلت[1] في شأن الذين عذبوا ومنعوا من اللحاق بإخوانهم في المدينة.

مما تقدم بيانه فإن سورة العنكبوت مكية باستثناء صدرها.

سورة الروم:

مكية. غير أن هناك استثناء لآية منها وهي قوله تعالى: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ ﴾ [الروم].

كما ورد ذلك في المصحف. ولم أقف على أثر يسند هذا الرأي. مما جعلني أرجح بأن هذه الآية تبعاً لسورتها مكية.

سورة لقمان:

هذه السورة مكية إجماعاً كما تقدم، لكن ورد في المصحف العثماني وكذلك في تفسير الطبري استثناء للآية الكريمة وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) تفسير الطبري، ج٣٠، ص ٨٣ .

مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولم أجد في الروايات التي ذكرت ما يجعلني أطمئن لذلك. فقد جاء في تفسير جامع البيان للطبري قوله: حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثنا محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال لما نزلت بمكة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]. يعني اليهود فلما هاجر رسول الله، ﷺ، إلى المدينة، أتاه يهود فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا . . . ؟ أفعنيتنا أم قومك ؟ قال: كُلاًّ قد عنيت. قالوا: فإنك تتلو: ﴿ إنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ﴾ فقال رسول الله، ﷺ: هي في علم الله قليل. وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم فأنزل الله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . ﴿٢٧﴾ ﴾ الآيات.

فهذه الرواية لا اعتماد عليها لأنها عن محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه. فمن هم بعض أصحابه حتى نعرفهم ؟. ثم إن كانت العلة هي سؤال أحبار يهود المدينة فإني قد بينت حينما تعرضت لآية الروح[1] بأن النبي، ﷺ قد اجاب يهود المدينة بما نَزَّل الله عليه في مكة، وقد يكون هذا من قبيل ما تكرر نزله، هذا على فرض صحة هذه الرواية. وعليه فإني أميل إلى أن هذه السورة كلها مكية بلا استثناء.

سورة السجدة:

هي مكية كما تقدم، واستثني منها قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۚ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) انظر ص ١٠١.

فقد ذكر ابن جرير الطبري رواية عن انس بن مالك جاء فيها: حدثني محمد بن خلف قال حدثنا يزيد بن حبان قال حدثنا الحارث بن وجيه الراسي قال حدثنا مالك بن دينار عن انس بن مالك: أن هذه الآية نزلت في رجال من اصحاب النبي ﷺ، كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1]

وقال الواحدي في أسباب النزول: أخبرنا أبو إسحاق المقرىء قال أخبرنا أبو الحسين محمد الدينوري قال أخبرنا موسى بن محمد قال أخبرنا الحسين بن علوية قال أخبرنا إسماعيل بن عيسى قال أخبرنا المسيب عن سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك قال فينا نزلت معاشر الأنصار: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[2].

نزلت في انتظار هذه الصلاة التي تدعى العتمة ـ أي صلاة العشاء[3].

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

قلت: وعلى هذا فإن سورة السجدة مكية باستثناء الآيات المتقدمة.

سورة سبأ:

مكية إجماعاً كما تقدم، وفي المصحف العثماني استثناء لقوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

كما ذهب إلى ذلك الزنجاني في تاريخ القرآن. وبالبحث عما يثبت ذلك لم أجد في كتب التفسير وأسباب النزول والسير أثراً لذلك غير ما ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره للآية الكريمة حاملاً معناها إلى أهل الكتاب فقال: وعنى بالذين أوتوا العلم مسلمة أهل الكتاب، كعبد ﷺ بن سلام ونظرائه الذين قرءوا كتب الله التي أنزلت قبل الفرقان. فقال تعالى ذكره وليرى هؤلاء الذين أوتو العلم بكتاب الله الذي هوالتوراة الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق.

أقول: إن هذا لا يكفي لإثبات كون الآية مدنية، إذ يجوز أن يكون المعنى

---

(١) ج٢٠، ص٦٣ .
(٢) أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٥ .
(٣) سنن الترمذي، ج٥، ص٣٤٦ .

بالذين أوتو الكتاب هم أصحاب النبي، ﷺ، ذكر ابن جرير نفسه ذلك حيث قال: حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة: ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق: قال أصحاب محمد قوله: يهدي إلى صراط العزيز الحميد: ويرشد من اتبعه وعمل بما فيه إلى سبيل الله العزيز في انتقامه من أعدائه، الحميد عند خلقه فأياديه عنده ونعمه لديهم[1].

قلت: إني أرى أن الآية تبعاً لسورتها مكية.

سورة يس:

هذه السورة الكريمة مكية، واستثني منها في المصحف قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، ولم أجد لذلك أثراً يؤيده. بل الذي وجدته ولم يذكر في المصحف العثماني: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

فقد روى الترمذي في سننه قال: حدثنا محمد بن وزير الواسطي حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثوري عن أبي نضرة، عن أبي سعيد ـ الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس].

فقال رسول الله، ﷺ، إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا.

قال الترمذي حديث حسن غريب، من حديث الثوري وأبي سفيان، وهو طريق السعدي. فهذه الآية بناء على هذه الرواية عند أبي سعيد الخدري مدنية النزول.

أما ما ذكروه في شأن الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ . . . ﴾ فلا أجد ما يؤيد ما زعموا، وعلى ذلك فسورة يس مكية إلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ ﴾. فمدنية.

---

(١) تفسير جامع البيان، ج٢٠، ص ٤٤ .

سورة الزمر:

هي مكية في قول الجميع ولقد استثني منها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ولم أجد ما يؤيد أن هذه الآيات مدنية، بل إن الذي وجدته في سبب نزول هذه الآيات يؤكد أنها نزلت بمكة تبعاً لسورتها. فقد أخرج البخاري في صحيحه حيث قال: حدثني إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم، قال يعلى أن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا فأتوا محمداً، ﷺ، فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه الحق لو تخبرنا إن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان]. ونزل: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

أقول: هذه الرواية صريحة في أن هذه الروايات نزلت في شأن المشركين ولم يكن في المدينة شرك ؟ وإنما كان أهل الكتاب وأهل النفاق.

ولقد تقدم في هذا المبحث في سورة الفرقان النص الذي أورده البخاري والخاص بنزول هذه الآيات بمكة.

وعلى ذلك فسورة الزمر مكية إجماعاً بلا استثناء.

سورة غافر:

هي سورة مكية إلاّ قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

فقد جاء في المصحف العثماني أنهما مدنيتان. ووجدت السيوطي في لباب

النقول في أسباب النزول يذكر ذلك، وأورد رواية عن أبي العالية أسندها إلى ابن أبي حاتم قال وأخرج - أي بن أبي حاتم - عن أبي العالية قال:

جاء اليهود إلى رسول الله، ﷺ، فذكروا ذلك الدجال فقالوا يكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر].

فأمر النبي أن يتعوذ من الدجال. ثم قال السيوطي: قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾.

قال من خلق الدجال. وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾. قال هم اليهود فنزلت فيما ينظرونه من أمر الدجال[1]. هكذا أورده السيوطي. لكن ابن كثير، رَحِمَهُ اللَّهُ، عندما فسر هاتين الآيتين ذكر هذا الحديث الذي أورده السيوطي وقال فيه: وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه[2].

وفي« تفسير التسهيل لعلوم التنزيل » وجدت أن محمد بن أحمد الجزي الكلبي يقول: عند تفسيره لسورة غافر: مكية إلاّ آيتين وأشار إلى الآيتين المتقدمتين وعندما جاء إلى تفسيرهما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾. يعني كفار قريش. ولم يشر أبداً إلى ما ذكره في مقدمة السورة من ان الآيتين مدنيتان[3].

أقول: إن هاتين الآيتين مرتبطتان بما قبلهما وما بعدهما ارتباطاً وثيقاً ولا يصح بغير دليل الحكم بأنهما نزلتا بالمدينة.

ولقد رأيت النيسابوري في كتاب: غرائب القرآن ورغائب الفرقان يقول عند تفسيره لهاتين الآيتين قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾.

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول، ص١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٨٤ .

(٣) تفسير الكلبي، ج٤، ص١٣ .

عَودٌ إلى ما انجرَّ إليه الكلام من أول السورة إلى هاهنا بيان السبب الباعث لكفار قريش على هذا الجدال وهو الكبر والحسد وحب الرياسة، وأن يكون الناس تحت تصرفهم وتسخيرهم لا أن يكونوا تحت تصرف غيرهم. فإن النبي، ﷺ، لابد أن تكون الأمة تحت أمره ونهيه، وذلك أي المتقدم من أوهامهم وأمانيهم تخيل ـ فاسد ـ ؛ لأن الغلبة لدين الأسلام؛ ولهذا قال: ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ ثم أمره أن يستعيذ في دفع شرورهم بالله السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم فيجازيهم على حسب ذلك، ثم أنهم كانوا أكثر ما يجادلون في أمر البعث؛ فاحتج الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

قلت: مما تقدم يتضح لنا أن القول باستثناء هاتين الآيتين من السورة لا يسنده دليل. وعليه فإن سورة غافر مكية بأجمعها.

سورة الشورى:

هذه السورة الكريمة تقدم أنها من السور المكية واستثني منها أربع آيات هي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وهذا الاستثناء قد خرجت منه الآية الكريمة: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ فلم يشملها القول ـ على هذا الرأي ـ بأنها مدنية.

هكذا هو في المصحف العثماني وفي الكتب التي سارت على نهجه ولم أجد لهذا الزعم من سند إلا في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان.

وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فقد أخرج الحاكم وصححه عن علي ـ قال نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة. ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا فتمنوا الدنيا.

قال السيوطي في أسباب النزول: وأخرج الطبراني عن عمرو بن حرين مثله[1]. أما فيما يتعلق بالآيات السابقة فلم أجد ما يؤيد كونها مدنية بل وجدت غير ذلك فقد ذكر الطبري في تفسيره عند تعرضه لهذه الآيات مبينا أنها نزلت في شأن قومه بمكة قال: القول في تفسير قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى].

يقول تعالى ذكره: هذا الذي أخبرتكم أيها الناس أني أعددته للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة من النعيم والكرامة، البشرى التي يبشر الله عباده الذين آمنوا به في الدنيا وعملوا بطاعته فيها. قل لا أسألكم عليه اجراً يقول تعالى ذكره لنبيه محمد، ﷺ: قل يا محمد للذين يمارونك في الساعة من مشركي قومك لا أسألكم أيها القوم على دعايتكم على ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به والنصيحة التي أنصحكم ثواباً وجزاءً وعوضاً من أموالكم تعطونيه إلاّ المودة في القربى[2].

قلت: المخاطبون هنا هم قومه من القرشيين، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن جرير نفسه بنفس الصفحة حيث قال: حدثنا أبو كريب قال حدثنا أسامة قال حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن طاوس في قوله: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾. قال سئل عنها ابن عباس، فقال ابن جبير: هم قربى آل محمد، فقال ابن عباس علمت أن رسول الله، ﷺ، لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ وله فيهم قرابة. قال فنزلت: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾. قال القرابة التي بيني

---

(١) أسباب النزول ص ١٨٨.

(٢) تفسير الطبري، ج٢٤، ص ١٥ ـ ١٦.

وبينكم أن تصلوها[1].

قلت: هذا واضح في أن هذه الآيات مكيات تبعاً لسورتها وعليه فإن الذي أطمئن إليه أن سورة الشورى مكية إلاّ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ فإنها نزلت في شأن أهل صفة مسجد رسول الله، ﷺ. أما غيرها من الآيات مما زعموا فإني لم أجد له سنداً.

سورة الزخرف:

هي سورة مكية كما تقدم ولم أجد من المفسرين من استثنى منها آية واحدة غير ما ورد في المصحف العثماني من استثناء لقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وهذه الآية الكريمة واردة في سياق قصة فرعون مع قومه. وقد بدأت القصة بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

فلا نستطيع من غير دليل أن نقول إنها مدنية، وعلى ذلك فالزخرف مكية بأجمعها.

سورة الجاثية:

مكية واستثني منها في المصحف العثماني قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وذكر الواحدي في أسباب النزول: أنها نزلت في شأن عمر بن الخطاب وعبد الله بن أُبي، وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع.؟ فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال: ما حبسك ؟ قال غلام عمر، قعد على قف فما ترك احد يسقي حتى ملأ قرب النبي، ﷺ وقرب أبي

---

(١) ص ١٥ ـ ١٦ .

بكر وقرب مولاه. فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك. فبلغ قوله عمر، رضي الله عنه، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]. هكذا ذكر الواحدي هذه القصة وجعلها سبباً لنزول الآية المذكورة. لكن برجوعي إلى كتب التفسير وجدت أن ابن جرير الطبري يعتبر هذه الآية من الآيات المكية التي نسخت حكماً بعد الإذن بالقتال. قال: القول في تاويل قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد، ﷺ: قل يا محمد للذين صدقوا الله واتبعوك يغفروا للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه، إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه « ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون » ليجزي الله هؤلاء الذين يؤذونهم من المشركين في الآخرة فيصيبهم عذابه بما كانوا في الدنيا يكسبون. ثم قال كان رسول الله، ﷺ، يعرض عن المشركين إذا آذوه، وكانوا يستهزؤن به ويكذبونه فأمره الله عز وجل أن يقاتل المشركين كافة، فكان هذا من المنسوخ. ثم ذكر إجماع المفسرين على ذلك فقال: وإنما قلنا هي منسوخة لإجماع أهل التأويل على أن ذلك كذلك[2].

وقال الجصاص[3] في أحكام القرآن[4]: حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ﴾. قال نسخها قوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة].

قلت: مما تقدم يظهر أن الآية الكريمة تبعاً لسورتها مكية.

سورة الأحقاف:

هذه السورة مكية كما تقدم وهي تعالج في جملتها موضوع العقيدة وما يتصل بها كما هو دأب السور المكية. وقد ورد استثناء لبعض آياتها كما هو في المصحف

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ص ٤٥٣ .

(٢) ج ٢٤، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٣) هو: أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص، توفي سنة ٣٧٠هـ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص, ج ٥، ص ٨٦ ـ ٨٧، توفي ٣٧٠هـ .

العثماني. فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فهذه الآيات قيل بأنها مدنية. ولننظر الآن في صحة هذا القول، فبالنسبة للآية الأولى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾. قيل أنها نزلت في شأن عبد الله بن سلام. ذكر ذلك ابن جرير وأورد رواية عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: « حدثني محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الآية. قال: كان رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد، ﷺ، فقال إنا نجده في التوراة، وكان أفضل رجل منهم وأعلمهم بالكتاب. فخاصم اليهود النبي، ﷺ. فقال أترضون أن يحكم بيني وبينكم عبد الله بن سلام؟ أتؤمنون ؟ قالوا: نعم. فأرسل إلى عبد الله بن سلام. فقال أتشهد أني رسول الله مكتوباً في التوراة والإنجيل ؟ قال: نعم. فأعرض عنه اليهود. وأسلم عبد الله بن سلام. فهو الذي قال الله جل ثناؤه فيه: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾. ثم يقول فآمن عبد الله بن سلام »[1].

ولكن وجدت عدة روايات تنقض هذه الرواية وتبين أن هذه الآية نزلت بمكة وليس بالمدينة. فمن ذلك ما أورده الطبري نفسه حيث قال: « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الأعلى قال سئل داود عن قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾. قال داود قال عامر قال مسروق: والله ما نزلت في عبد الله بن

---

(١) تفسير الطبري، ج٢٤، ص٦ .

سلام ما نزلت إلا بمكة وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة ولكنها خصومة خاصم محمد، ﷺ، بها قومه قال فنزل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.

قال: فالتوراة مثل القرآن وموسى مثل محمد، ﷺ، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم وكفرتم »[1].

قلت: قوله: فالتوراة مثل القرآن وموسى مثل محمد، ﷺ: يعني أن التوراة كتاب منزل من الله وموسى، عليه السلام، مرسل من الله..

وفي رواية أخرى يقول الطبري: حدثنا أبو كريب قال حدثنا ابن إدريس قال سمعت داود بن هند عند الشعبي قال: أناس يزعمون أن شاهداً من بني إسرائيل على مثله عبد الله بن سلام. وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، وقد اخبرني مسروق أن « ال حم » إنما نزلت بمكة. وإنما كانت محاجة الرسول، ﷺ، وقومه فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾. فآمن موسى ومحمد عليهما السلام على الفرقان[2].

قلت: هاتان الروايتان تؤيدان بعضهما بعضاً، بالإضافة إلى موضوع الآيات السابقة لها واللاحقة يؤيد أن هذه الآية الكريمة مكية غير مدنية، ومن هنا فإني أرجح أن هذه الآية تبعاً لسورتها مكية.

أما الآية الثانية وهي قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾. فلم أجد ما يؤيد ذلك. أي كونها مدنية، وهذه الآية تحمل وصية الله تعالى للأبناء بالإحسان إلى الآباء، ومعظم هذه الوصايا جاءت في سور مكية. كسورة الإسراء ولقمان.

ولم أجد نصاً يؤيد كونها مدنية؛ لذا فإني أرى أنها تبعاً لسورتها مكية.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية. فلم أجد لها سنداً ولو ضعيفاً يؤيد كونها مدنية، مما جعلني أميل إلى أن هذه السورة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

الكريمة كلها مكية.

سورة ق:

تقدم أن سورة ق من السور المكية إجماعاً، وقد ورد في المصحف العثماني استثناء لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

وبالبحث وجدت أن ذلك مذكور، ذكره الواحدي في أسباب النزول وأنها نزلت في شأن مسألة اليهود للنبي، ﷺ: قال الواحدي: قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الآية.

قال: أخبرنا أحمد بن محمد التميمي قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر الحافظ قال أخبرنا إبراهيم بن محمد بن الحسن قال أخبرنا قتادة بن السري قال أخبرنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس: أن اليهود أتت النبي، ﷺ، فسألت عن خلق السموات والأرض فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق السموات يوم الأربعاء والخميس وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر.

قالت اليهود ثم ماذا يامحمد ؟ قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]. قالوا قد أصبت، لو أتممت، ثم استراح. فغضب رسول الله، ﷺ، غضباً شديداً فنزلت: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

وبمثل ما أورده الواحدي قال الطبري[2]. وقال السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول:

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ص٢٦٦.

(٢) تفسير الطبري، ج ٢٤، ص ١١١ .

يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشجر والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه. فخلق في أول ساعة الآجال حتى يموت من مات. وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينفع به الناس. وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة.

ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد ؟.

قال: ثم استوى على العرش. قالوا قد أصبت لو أتممت لوثم استراح. فغضب النبي ﷺ، غضباً شديداً فنزلت: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . . . . ﴿٣٨﴾ ﴾[1] [ق].

قلت: وحديث الخلق هذا ذكره مسلم في باب بدء الخلق[2] ولم يربطه بسؤال اليهود.

مما تقدم من الروايات في أسباب نزول الآية الكريمة تبين أن سورة ق مكية باستثناء الآية المتقدمة فإنها مدنية.

سورة النجم:

مكية استثني منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

كما هو في المصحف العثماني. ولقد وجدت الواحدي ذكر لها سبباً للنزول حيث قال: أخبرنا أبو الشيخ الحافظ قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد بن الحسين قال: أخبرنا حمد بن سعد قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صديق، فبلغ ذلك النبي، ﷺ، فقال: كذبت يهود، ما من نسمة

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .
(٢) صحيح مسلم، ج٤، ص ٢١٤٩ ـ ٢١٥٠.

يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية:

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] إلى آخرها. وأورد ذلك أيضاً السيوطي حيث قال: أخرج الطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت بن الحارث الأنصاري، قال: كانت اليهود تقول: إذا هلك لهم صبي صغير هو صديق، فبلغ ذلك النبي، ﷺ، فقال كذبت اليهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه، إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية[2] ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قلت: هذه الآثار الواردة بشأن هذه الآية تدل على أنها مدنية النزول، وعليه فسورة النجم مكية باستثناء هذه الآية ـ فمدنية.

سورة القمر:

هذه السورة مكية كما تقدم في الرواية التي ذكرتها في مبحث السور المتفق على مكيتها. ولقد جاء في المصحف العثماني استثناء لبعض آياتها وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ولكن الذي وقفت عليه أن هذه الآيات تبعاً لسورتها مكية، قد نزلت في شأن مشركي مكة. يقول ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم: إنهم إن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، أكفاركم معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون فهم يأملون أن ينجوا من عذابي ونقمي على كفرهم وتكذيبهم رسولي. يقول إنما أنتم في كفركم بالله وتكذيبكم رسوله كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به. كالذي نزل بهم إن لم تتوبوا وتنيبوا.

قلت: إن ابن جرير رحمه الله في فهمه لهذه الآيات وتفسيره لها أنها في شأن مشركي مكة وأيد ذلك بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٦٧.

(٢) أسباب النزول للسيوطي ص٢٠١.

حدثنا ابن عبد الأعلى قال: حدثنا ابن نور عن معمر عن أيوب قال: لا أعلمه إلا عن طريق عكرمة أن عمر قال: لما نزلت: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ جعلت أقول: أي جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي،ﷺ، يثب في الدرع ويقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1]. قلت: يؤيد ما ذهب إليه ابن جرير، ما أخرجه البخاري عن عائشة حين قال: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين قالت: لقد أنزل على محمد،ﷺ، بمكة وإني لجارية ألعب﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.[2]

فهذا النص يوضح زمان نزول هذه الآيات وهو بمكة قبل هجرة النبي،ﷺ، وعلى ذلك فإن سورة القمر مكية كلها.

سورة الواقعة:

هي مكية إجماعاً واستثنى منها قوله تبارك وتعالى:﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾.

فقد أخرج مسلم في صحيحه قال: حدثني عباس بن عبد العظيم العنبري حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة وهو ابن عمار حدثنا أبو رميل قال: حدثني ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي،ﷺ، فقال النبي،ﷺ: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا: هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا. قال: فنزلت هذه الآية:﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾.

قلت: وهذه الحادثة وقعت بالحديبية وهي بعد الهجرة النبوية. وذلك لما أخرجه مسلم نفسه حيث قال في نفس الصفحة:

حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عتبة عن يزيد بن خالد الجهمي قال: صلى بنا رسول اﷺ، صلاة الصبح

---

(١) تفسير ابن جرير ج٢٧ ص٦٤.

(٢) البخاري كتاب التفسير ج٥ ص١٧٩.

بالحديبية في أثر السماء ـ أي بعد المطر ـ كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم ؟. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب[1].

فهذان الحديثان يدلان على أن هذه الآية مدنية النزول، ولم يوجد هذا الاستثناء في المصحف العثماني، بل اعتمد سورة الواقعة كلها مكية.

سورة ن والقلم:

تقدم أن هذه السورة الكريمة مكية إجماعاً. وقد استثنى منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ومن قوله: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾. وهذا الاستثناء لم أجد له سنداً، سوى ما ذكره السيوطي في أسباب النزول حيث قال: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحبال ولا تقتلوا منهم أحداً. فنزلت: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾. يقول: في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة في الجنة[2]. أهـ.

أقول: هذا ما ذكر السيوطي، ولكن يظهر ـ والله أعلم ـ أن المبتلين هم مشركو مكة، وإلى هذا أشار ابن جرير الطبري حيث قال: يعني قوله تعالى ذكره: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي مشركو قريش يقول امتحناهم فاختبرناهم كما بلونا أصحاب الجنة[3].

أما الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات: فليعلم المشركون أهل مكة أنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ولينظروا ماذا وراء

---

(١) ج١ ص٨٣ ـ ٨٤.
(٢) في أسباب النزول ص ٢١٩.
(٣) ج٢٨ ص١٩ من كتاب جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير.

الابتلاء ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة بما هو متبادل بينهم من القصص فيربط بين سننه في الغابرين وسننه في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرون على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه وله نتائجه[1].

أقول: هذا المتجه في تفسير هذه الآية الكريمة يثبت أن القصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجو الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، وإلى ذلك أميل وأرجح أن هذه الآية تبعاً لسورتها مكية النزول.

أما قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴿٤٨﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾، فإني لم أجد أثراً واحداً يدل على كونها نزلت بالمدينة، ثم إنا ألفنا هذا اللون من التوجيه الرباني في أسلوب القرآن في عهده المكي ـ فالأمر بالصبر وتحمل أذى المشركين وضرب المثل بالرسل السابقين، كل ذلك يجعلنا نرجح أن هذه الآيات مرتبطة بجو سورتها ـ جو العهد المكي، فالسورة مكية بلا استثناء.

سورة المزمل:

هذه السورة مكية وقد استثنى منها آيتان هما قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾.

كما استثنى منها أيضاً قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فأما الآيتان المتقدمتان مكيتان فلم أجد ما يؤيد كونهما مدنيتين بل إن الدليل قائم على أن هاتين الآيتين مكيتان تبعاً لسورتهما.

يقول ابن جرير الطبري، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عند تفسيره لهاتين الآيتين: قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الثامن ص٢٣٦.

عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾. يقول تعالى لنبيه محمد، ﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون من قومك لك وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجراً جميلاً والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله كما قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴿٦٨﴾ ﴾[1] [الأنعام]. انتهى ما قاله ابن جرير وهو يرى أن الخطاب للنبي، ﷺ، ليصبر على أذى قومه مشركي مكة وليهجرهم في ذات الله تعالى هجراً جميلاً . . . .

يقول الأستاذ سيد قطب عند تفسيره لهما: وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى القيام والذكر. وهما كثيراً ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل . . . سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين وكلاهما شاق عسير . . . نجد التوجيه إلى الصبر: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾. مما يغيظ ويخيف. ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ لا عتاب معه ولا غضب ولا مشادة.

وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة، وبخاصة في أوائلها كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ومجرد بلاغ هادىء ومجرد بيان مثير[2].

قلت: مما يتقدم يتبين لنا أن هاتين الآيتين تبعاً لسورتهما مكيتان.

وأما ما ورد في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ ﴿٢٠﴾ ﴾ إلى آخر الآية هي أنها مدنية كما هو في المصحف، فلم أجد ما يؤيد ذلك بل إن الذي وجدته لينص على أن هذه الآية مكية.

فقد أخرج مسلم في صحيحه تحت باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، قال: حدثنا محمد بن المثنى العنزي حدثنا محمد بن عدي عن سعيد عن قتادة عن زرارة أن سعد بن هشام ابن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله فقدم المدينة فأراد أن يبيع عقاراً له بها فيجعله في السلاح والكراع ـ اسم الخيل ـ ويجاهد الروم حتى يموت ، فلما قدم المدينة لقي أناساً من أهل المدينة فنهوه عن ذلك

---

(١) تفسير ابن جرير، ج٢٨، ص ٨٤.

(٢) تفسير في ظلال القرآن، المجلد الثامن، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

وأخبروه أن رهطاً ستة أرادوا ذلك في حياة النبي،ﷺ، فنهاهم نبي الله،ﷺ، وقال:« أليس لكم فيَّ أسوة » فلما حدثوه بذلك راجع امرأته وكان طلقها وأشهد على رجعتها. فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله،ﷺ،فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله،ﷺ ؟ قال: من ؟ قال: عائشة، فأتها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك ـ أي جوابها. فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح ـ فاستحلفته إليها ـ أي طلب منه مرافقته في الذهاب إليها.

فقال: ما أنا بقاربها ـ يعني لا أريد قربها، لأني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً ـ أراد بذلك الحروب التي دارت بين شيعة علي وأصحاب الجمل ـ فأبت منهما إلا أن مضيا قال: فأقسمت عليه فجاء، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنا عليها فأذنت لنا، فدخلنا عليها، فقالت: أحكيم ؟ فعرفته ـ فقال: نعم. قالت: من معك ؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام ؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه وقالت خيراً. قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد فقلت: يا أم المؤمنين انبئيني عن خلق رسول الله،ﷺ ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق النبي الله،ﷺ، كان القرآن ـ معناه العمل به والوقوف عند حدوده ـ، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت. ثم بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله،ﷺ ؟ فقالت: ألست تقرأ يا أيها المزمل ؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي،ﷺ، وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها ـ يعني﴿ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ﴿٢٠﴾ ﴾. الآية، اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة. إلى آخر الحديث[1].

قلت: معلوم أن سورة المزمل من أوائل سور القرآن نزولاً بمكة أعني صدر هذه السورة. وقول عائشة رضي الله عنها: وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً على أنها مكية النزول تبعاً لسورتها: وهذا يدعوني إلى القول بأن سورة المزمل كلها مكية بلا استثناء فيها.

---

(١) ج١ ص٥١٢ ـ ٥١٣ .

سورة المرسلات:

مكية إجماعاً واستثنى منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ كما هو موضح في المصحف.

ومع أن هذه السورة كلها مكية وهذه الآية المعنية تتكلم في شأن المكذبين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فإني لم أجد ما يؤيد أنها مدنية النزول. وإذاً فالآية تبعاً لسورتها مكية.

سورة الماعون:

هذه السورة الكريمة صدرها مكي أي الثلاث آيات الأولى منها والباقي مدني. فقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾، فهذا مكي وما بقي من السورة فمدني.

فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول: سبب نزولها حيث قال: قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ﴾ قال مقاتل والكلبي نزلت في العاص بن وائل السهمي ـ وقال ابن جريج كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين ـفأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصا ـ، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ [1].

أما آخر السورة فقد قال السيوطي في «لباب النقول في أسباب النزول»: أخرج ابن المنذر عن طريق من أبي طلحة عن أبن عباس في قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ﴾ قال: نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا ما حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية[2].

ولقد رأيت الأستاذ سيد قطب رحمه الله يعالج هذا الموضوع علاجاً طيباً، يقول: هذه السورة مكية في بعض الروايات ومدنية في بعض الروايات، الثلاث

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٦.

(٢) ص٢٣٥.

آيات الأولى مكية والباقيات مدنية، وهذه الأخيرة هي الأرجح. وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة ذات اتجاه واحد لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها، إذ الموضوع الذي تعالجه هو من موضوعات القرآن المدني.

وهو في جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفاً في الجماعة الإسلامية في مكة.

ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لا يمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاثة الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع[1].

أقول: اعتماداً على الروايات المتقدمة وما قاله الأستاذ سيد قطب فإني أرجح أن السورة مكية الصدر ومدنية في باقي آياتها ـ وبهذا خلصت من بيان الآيات المدنية في السور المكية. وتكملة للموضوع نبين الأيات المكية في السور المدنية فنقول:

الآيات المكية في السور المدنية:

وقبل الشروع في بيان الآيات المكية في السور المدنية أحب أن أذكر بأني قد رجحت عند تعريفي للمكي والمدني الأخذ بنظر الاعتبار زمان النزول، ولذا فإن آية النساء: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾. رغم أنها نزلت بمكة عام الفتح إلا أني أعتبرها مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة وكذلك آية المائدة: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴿٣﴾ فهي على ما اخترته من المصطلحات مدنية بالرغم من أنها نزلت بمنى في حجة الوداع.

ذكرت هذا حتى لا يلتبس على القارىء حين لا يجدني قد تعرضت لهذه الآيات ضمن هذه المبحث، وعليه فإن: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة مدنيات بلا استثناء.

أما سورة الأنفال فهي مدنية ولقد استثني منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ

---

(١) المجلد الثامن ص٦٧٨.

بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ كما جاء في المصحف الشريف. وقد ذكر ذلك من المفسرين ابن جرير الطبري حيث قال: هذه مكية. قال ابن جريج: قال مجاهد: هذه مكية[1].

قلت: ما ذكره ابن جرير الطبري لم يصل عندي إلى حد القناعة لأني لم أجد ما يعضد هذا القول، وعليه فإني أرى أن هذه الآيات تبعاً لسورتها مدنية.

كذلك استثنى من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ فإنها نزلت في النضر بن الحارث: هو الذي كان يجلس لقصص الأساطير ويقول في القرآن إنه أساطير الأولين ولو شئنا لقلنا مثله.

قال ابن جرير: كان النضر بن الحارث يختلف تاجراً إلى فارس فيمر بالعبّاد وهم يقرءون الإنجيل ويركعون ويسجدون فجاء مكة فوجد محمداً، ﷺ، قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد فقال النضر: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا الذي سمع من العبّاد. فنزلت: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾. قال: فقص ربنا ما كانوا قالوا ـ بمكة[2] . قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قال الواحدي: قال أهل التفسير: نزلت في النضر بن الحارث وهو الذي قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء[3]. وقد يكون القائل النضر أو غيره من رؤوس الشرك في مكة، ذلك أنه وردت رواية أخرى: أنها نزلت في أبي جهل وأنه هو القائل: إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء. فقد قال الواحدي:

---

(١) تفسيرالطبري ج٩ ص١٥١.
(٢) ج٩ ص١٥١.
(٣) أسباب النزول للواحدي ص١٥٨.

أخبرنا محمد بن أحمد بن جعفر قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنا محمد بن يعقوب الشيباني قال: حدثنا أحمد بن النضر بن عبد الوهاب قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ قال: حدثنا أبي قال: حدثنا شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي أنه سمع أنس بن مالك يقول:

قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قلت: يظهر لي أن قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٢﴾ ﴾ هي قول المشركين سواء أكان ذلك القائل هو النضر ابن الحارث أو أبو جهل أو معهما غيرهما فإن الله تعالى قد ذكر ذلك للنبي، ﷺ، مذكراً إياه بما كان عليه القوم، ولا يبعد أن يكون هذا التذكير بقولهم قد نزل في المدينة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾. هو رد على مقالتهم التي قالوها عن عمى وعناد وهذه تكون قد حدثت وقت قولهم في مكة فسورة الأنفال مدنية باستثناء قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقد كدت أعتقد هذا المعتقد لما وجدت ذكر بعض المفسرين له، غير أني وجدت في سنن الترمذي كتاب التفسير. يقول: حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة ابن أبي موسى عن أبيه، قال: قال رسول الله، ﷺ: أنزل الله عليَّ أمانَيْن لأمتي. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. إذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة[1].

قال الترمذي: هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث.

وبناء على ما تقدم فإني أرى أن هذه الآيات التي دار حولها الحديث بأنها

---

(١) سنن الترمذي، ج٥، ص ٢٧٠.

مكية لا يبعد أن تكون مدنية وقد قص الله تعالى على نبيه ما كان عليه القوم في مكة مذكراً إياه بحالهم.

وأن هذه الآيات تبعاً لسورتها مدنية، هذا ما أميل إليه لعدم وجود دليل قاطع يبرهن على مكية الآيات.

سـورة التوبة:

ورد أنها مدنية إجماعاً كما تقدم. ووجدت استثناء للآيتين الأخيرتين فهما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

هذا وبالبحث عن دليل يؤيد ذلك لم أجده مما جعلني أعتبر هاتين الآيتين تبعاً لسورتهما مدنيتان.

لكني وجدت أن قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾.

قد نزل بمكة في شأن استغفار النبي، ﷺ، لعمه أبي طالب.

قد جاء في صحيح البخاري كتاب التفسير قوله: حدثنا محمود حدثنا عبد الرازق أخبرنا محمد عن الزهري عن ابن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي، ﷺ، وعنده أبو جهل فقال: أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب. فقال النبي، ﷺ، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾[1].

فهذه الرواية تدل على أن هذه الآية مكية النزول ـ وقد ذكر أيضاً ذلك

---

(١) صحيح البخاري، ج٥، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول[1]، ولم يذكر استثناء لهذه الآية في المصحف. هذا ما ظهر لي من وجود آيات مكيات في سور مدنية.

إن وجود آية أو آيات مكية في سور مدنية ووجود آية أو آيات مدنية في سور مكية هو ضرب من الإعجاز، حيث أن التالي لكتاب الله تعالى لا يجد تنافراً في السورة مع عناصرها المتعددة المختلفة نزولاً. ولا يحس بفارق بين الآيات رغم تباعد زمان النزول.

فلو لم يكن القرآن من عند الله لكان الأمر غير ذلك وصدق الله العظيم القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

---

(١) ص ١٢٦ .

المبحث السادس

التشريع في العهد المكي

هل في العهد المكي تشريع ؟

كثيراً ما طرح هذا السؤال عند العلماء وهم يكتبون في تاريخ التشريع أو يفسرون كتاب الله تعالى وبخاصة عندما يواجهون بآيات مكية تتكلم صراحة أو ضمناً عن احكام تشريعية. وذلك أن الحكومة الإسلامية بمعناها الشامل ما قامت إلا بعد هجرة النبي، ﷺ، إلى المدينة المنورة، وصحب ذلك القدرة على تنفيذ الأحكام.

ومعلوم أن النبي، ﷺ، مكث بمكة المكرمة ـ بعد البعثة ـ ثلاثة عشرة عاماً يدعو إلى الله تعالى.

وكان سلاحه الذي يتحرك به ومن خلاله هو القرآن الكريم ـ وأكرم به من سلاح ـ ينزل عليه يدعو به ـ ويحل ما استعصى من مشكلات الحياة اليومية التي يحياها الرسول، ﷺ، ومن تبعه من المؤمنين، وكان في كل هذه المدة مركزاً جهوده وجهود من معه على ترسيخ العقيدة الإسلامية ومبادئها وما يتصل بها من سلوك وأخلاق وذلك لبناء الجماعة المسلمة التي قامت على أكتافها ـ فيما بعد ـ الدولة الإسلامية.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: أنزل على رسول الله، ﷺ، وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي، ﷺ[1].

وفي صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم وهارون ابن عبد الله عن روح بن عبادة ـ حدثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن

---

(١) صحيح البخاري، ج٥، ص ٥٦ .

ابن عباس: أن رسول الله، ﷺ. مكث بمكة ثلاث عشرة سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين[1].

وكانت الجماعة المسلمة تعيش وسط جو مشحون بالشرك والوثنية فكان القرآن ينزل داعياً إلى وحدانية الله تعالى، والابتعاد عن الشرك والشركاء.

فإذا كان المراد بالتشريع في هذا العهد التشريع التفصيلي للعبادات والمعاملات وشئون الحرب والسلم وكيان الأسرة وما يتعلق بها، فهذا ما لم يتوفر له الجو في العهد المكي. وأما إن كان المراد بالتشريع إرساء قواعد الأخلاق والسلوك ووضع الأسس العامة فهذا موجود في تلك الحقبة من تاريخ الدعوة الإسلامية.

يقول الشيخ محمد الخضري: آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه، والحث على مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله، ﷺ، ليكملها. ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها. أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية[2].

أقول: إن الاستجابة للأوامر والنواهي الإلهية تتطلب إيماناً بالله تعالى وبرسوله الذي أرسله وبالقرآن الذي ينزل عليه. والقوم في هذه الفترة يشركون بالله ويكذبون رسوله ومن ثم لا يصدقون بالقرآن الذي ينزل عليه.

ولذلك كانت المجادلات والأسئلة التعجيزية تصدر عنهم لرسول الله، ﷺ، من وقت لآخر: فمن ذلك ما قصه علينا الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) صحيح مسلم، ج٥، ص١٨٢٦.

(٢) تاريخ التشريع، ص١٤.

جاء في حاشية الجمل[1]، على الجلالين:

قال عبد الله بن أمية ـ وهو ابن عمته، ﷺ، عاتكة ـ لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلماً إلى السماء ترقى فيه وإنا ننظر إليك حتى تأتيها، فتأتي بنسخة منشورة معك وبنفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول. فانصرف رسول الله، ﷺ، عنهم حزيناً لما رأى من تباعدهم عن الهدى فأنزل الله عز وجل تسلية لرسوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ . . . . ﴾ [الإسراء].

قلت: إن هذه الآيات تبرز في وضوح عجز هؤلاء القوم، وقصور إدراكهم عن الإرتفاع إلى مستوى الرسالة السماوية. وتدل على تعنت ساذج منهم وتبجح في حق الله تعالى بلا أدب ولا تحرج. فلو كانوا حقاً يطلبون ما يقنعهم حتى يؤمنوا لالتمسوا ذلك في القرآن الكريم وهو المعجزة الخارقة الباقية التي لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها، ولن يستطيعوا ذلك . . . ولو تدبروا قليلاً لما علّقوا إيمانهم بتحقق تلك المقترحات، وغاب عنهم أن الرسول بشر. وأن الخوارق ليست من صنعه وليس من شأنه أن يطلبها من ربه ولا أن يقترح عليه ولا يتزيد فيما كلف به. بل يقف عند حدود البشرية وأدب الرسالة ـ فيمنعه ذلك من أن يقترح على الله عز وجل: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء].

هذه صورة من الجو الذي عاش فيه الرسول، ﷺ، بمكة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. مركزاً الجهد في تثبيت عقيدة التوحيد ولهذا كان المحور الذي تدور حوله الدعوة هو العقيدة وما يتصل بها.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة، رحمه الله: ولم يكن في الآيات المكية أحكام للمعاملات، وإن كان فيها إشارات للمحرمات، كالخمرة والربا فقد قال تعالى مشيراً إلى أن الخمرة أمر غير حسن: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل].

فإن هذا النص الكريم يشير إلى أن الخمرة ليست أمراً حسناً لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ولا يقابل الحسن إلا القبيح، أو على الأقل

---

(١) هو: الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ت ١٢٠٤ هـ .

الأمر غير الحسن.

ولقد جاء أيضاً في سورة الروم ما يشير إلى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم].

ثم يقول الشيخ أبو زهرة: « إن عدم وجود معاملات في مكة سببه أن الدولة التي كانت قائمة كانت دولة شرك[1]، وإن من المستحيل أن تنعقد أحكام المعاملات الإسلامية في ظلها.

وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك وإدخالها في التوحيد أولاً. ثم بعد ذلك تكون الدولة الإسلامية المنفذة، ولكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام وإن كان مسكوتاً عنها فلم تكن موضع إباحة بل كانت موضع سكوت وعفو كما يقول علماء الأصول: حتى إذا كان المنع الصريح في المدينة كان معه العقاب . . وهكذا كلما كان مسكوتاً عنه يكن موضع إباحة »[2].

قلت: إن مما ورد ذكره من المحرمات في العهد المكي على سبيل المثال: ما ذبح من غير ذكر اسم الله عليه. فقد جاء في سورة الأنعام: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام].

فهذه الآيات مكيات وقد جاءت بتشريع واضح يبين ما يباح أكله وما نهى عن الأكل منه. فقد أباحت الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها حيث تزكيتها ونهت عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه. كما كان يفعل كفار قريش، وقد كانوا يقولون: تأكلون مما تذبحون ـ ولا نأكل مما يذبح الله ـ يعنون بذلك الميتة.

---

(١) يعني بذلك أن السلطة القائمة كانت سلطة جاهلية فتسميتها دولة تسمية مجازية.

(٢) كتاب المعجزة الكبرى، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

وهذا التشريع مرتبط بأمر العقيدة إن التحريم والتحليل من الله سبحانه وتعالى، وبأمره وحده، ولذا حذر عباده من التسلط على هذا الحق: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: هذه إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسم الله. ومفهومه أنه لا يباح أكل ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب[1] وغيرها ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿١١٩﴾ ﴾. ومما ورد في سبب نزول هذه الآيات ما أخرجه الترمذي حيث قال: حدثنا محمد بن موسى البصري الحرشي قال: حدثنا يزيد بن عبد الله البكائي حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال: أتى أناس النبي، ﷺ، فقالوا: يا رسول الله أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله ؟ فأنزل الله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام].

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عباس أيضاً ـ وروي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن النبي، ﷺ. فهذا حكم تشريعي في ايات مكية، وذلك لما قدمنا من أن له صلةً لا تنفك عن العقيدة.

يقول القرطبي في الجامع لأحكام القران في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام].

فدلت الآية على أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار به مشركاً، وقد حرم الله تعالى الميتة نصاً فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة].

فإن من اتخذ كافراً ولياً ليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاد ذلك الكافر ـ وهذا ما

---

(١) النصب بوزن الضرب ما نصب فعبد من دون الله.

أشار إليه القرطبي نفسه حين قال: على أن من اتخذ كافراً ولياً ليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله[1]. [2]

فالتشريع في هذه الفترة تشريع ذو صلة مباشرة بالعقيدة.

والأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآيات قال: ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ويحلون ذبائح حرمها الله ويزعمون أن هذا هو شرع الله، فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله فيقرر أنهم إنما يشرعونه لهم من عند أنفسهم، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد[3]. أهـ.

فرضية الصلاة:

ومن التشريعات التي نزلت في العهد المكي: فرضية الصلاة فقد أجمعت الأمة على أنها فرضت بمكة في ليلة الإسراء والمعراج. جاء في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر في باب المعراج ـ وذكر حديث المعراج طويل وجاء فيه: ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت بموسى فقال: بم أُمرتَ ؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرتُ بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال: بم أُمرتَ ؟ قلت: أُمرتُ

---

(١) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٥٤.

(٢) قال ابن العربي: إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً إذا أطاعه في اعتقاده الذي هو محل الكفر والإيمان، فإذا أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاصٍ.

(٣) في ظلال القرآن ج٨ ص٣٦٩.

بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: « أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي»[1].

فهذا الحديث قد بين زمان فرضية الصلاة وهو ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة النبوية. والقرآن الكريم في عهده المكي قد تكلم كثيراً في الأمر بالصلاة وأكد ذلك في العهد المدني، فحينما ننظر إلى السور المكية نجدها قد بسطت الكلام في هذا الموضوع. وما ذلك إلا لأهمية الصلاة، ولا غرابة في ذلك فهي الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة، وهي بعد الشهادتين، والصلة بين العبد وربه، فمن ذلك ما جاء في سورة الإسراء: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾.

وهو أمر بإقامة الصلوات المكتوبات وعل ذلك جمهور المفسرين. ودلوك الشمس هو زوالها، وغسق الليل ظلامه. وقد أخذ من هذا الظهر والعصر والمغرب والعشاء. أما صلاة الصبح فقد أخذت من قوله تعالى: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾.

وبينت ذلك السنة النبوية المطهرة، ففي صحيح البخاري كتاب التفسير: ﴿ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾ قال مجاهد: صلاة الفجر.

قال: حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي، ﷺ، قال: « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة النهار في صلاة الصبح ».

يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾[2].

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٢٠٢.

(٢) صحيح البخاري ج٥ ص١٠٨.

والشوكاني في فتح القدير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول: لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات وهي الصلاة فقال: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الصلاة المراد بها المفروضة[1].

قلت: ويفهم من الآية الكريمة أن الأمر فيها للنبي، ﷺ، ولأمته. لكن رأيت الأستاذ سيد قطب رحمه الله يفهم منها أنها خاصة بالرسول، ﷺ، لأنه يقول في الجزء الخامس عشر:

والأمر هنا للرسول، ﷺ، خاصة. أما الصلوات المكتوبة فلها أوقاتها التي تواترت بها أحاديث الرسول، ﷺ[2].

أقول: مما تقدم بيانه في صدر هذا الموضوع ولتفسير أبي هريرة رضي الله عنه للآية المذكورة فإني أميل إلى أن المراد منها هي الصلوات المفروضة.

ومن ذلك ما جاء في سورة إبراهيم: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وفي سورة طه: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

وفي سورة العنكبوت: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وفي سورة الأنعام: ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذه أمثلة لما ورد في السور المكية من الأمر بالصلاة، وإنما سقت هذا لتأكيد ما أجمع على فرضيته في مكة قبل الهجرة، ولقد بينت السنة النبوية المطهرة كل ما يتعلق بالصلاة من أحكام.

---

(١) فتح القدير ج٣ ص٢٥٠.

(٢) في ظلال القرآن ج٥ ص٢٣.

الزكاة:

لقد ذكرت في صدر هذا البحث أن الفترة المكية اهتمت بإعداد الفرد والجماعةوأخذهم بالتربية من كل جانب من جوانب الحياة. وذلك بتصحيح العقيدة وتسليم المرء نفسه لله تبارك وتعالى.

ولما كان المال يشكل جانباً حياً في حياة الإنسان، وأنه يتوقف عليه التعامل بين الناس وبالتالي فهو عصب الحياة، كان حب الإنسان له حباً جماً. وهذه المكانة للمال جعلته شقيق الروح، لذلك نجد كثيراً من الآيات المكية تناولت كيفية تعامل المسلم مع المال، لأن الدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية في عهدها المكي يجد أن الكثرة الغالبة من المؤمنين هم من رقيقي الحال من الناحية المادية.

ولما كان الأمر كذلك فإنا نجد كثيراً من الآيات تحض على إطعام المساكين، وعلى دفع المال لهم، وفي ذلك ما فيه من التعاون على البر والتقوى.

ففي سورة المدثر مثلاً وهي من أوائل سور القرآن نزولاً نجد قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فكان عدم إطعامهم المساكين سبباً من أسباب هلاكهم.

وفي سورة الحاقة نجد مشهد الذي لم يغن عنه ماله لأنه لم يوظفه لعمل الخير والفلاح فكان أن أورده موارد الهلاك: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وهؤلاء المتقون المنعمون في الجنة من أبرز صفاتهم أنهم جعلوا من مالهم حقاً للسائل والمحروم. يقول الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾.

وأعيد هذا النص في سورة المعارج، قال تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى

صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وفي سورة الإسراء: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

وفي سورة الروم: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

بهذه الآيات ومثيلاتها غرس القرآن الكريم في عهده المكي روح البذل والعطاء في نفوس المؤمنين.

وقد اختلف العلماء في تاريخ تشريع الزكاة هل كانت بمكة أو بالمدينة ؟

فقال قوم: فرضت بمكة مستدلين بآية سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾. فقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ أمر بإخراج الزكاة.

ففي كتاب «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي نجده يقول: اختلف الناس حول تفسير هذا الحق ماهو ؟ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضحاك وسعيد بن المسيب هي الزكاة المفروضة. رواه ابن أبي وهب وابن القاسم عن مالك في تفسير الزكاة وبه قال بعض أصحاب الشافعي... ثم قال القرطبي:

وقال علي بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جبير ومجاهد هو: حق في المال سوى الزكاة أمر الله به ندباً. وروي عن ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضاً ورواه أبو سعيد الخدري عن النبي، ﷺ. ثم ذكر القرطبي قولاً ثالثاً فقال: هو منسوخ بآية الزكاة لأن هذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]. وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

---

(١) تفسير القرطبي ج٧ ص٩٩ ـ ١٠٠.

أقول: يظهر لي والله أعلم أن أصل فرضية الزكاة كان بمكة، لكن الزكاة ذات المقادير بتقسيماتها ومكان إخراجها هذه لم تكن إلا في المدينة.

وابن كثير في تفسيره لصدر سورة المؤمنين يقول عند قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾، الأكثرون على أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة.

ثم يقول: والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالأظهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴿١٤١﴾ ﴾.

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].[1]

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتاب الزكاة موفِّقاً بين الآيات القرآنية التي تأمر بأداء الزكاة والتي أجمعوا على أنها نزلت بمكة قبل الهجرة وبين قول من قال أنها فرضت بعد الهجرة مستدلاً بآيات سورة التوبة وغيرها من الآيات المدنية. يقول القرضاوي: إذا كان إيتاء الزكاة من الأوصاف اللازمة للمشركين فدل ذلك على الوجوب. إذ التحلي بصفات المؤمنين والخروج عن خصائص المشركين أمر واجب لا نزاع فيه. يضاف إلى ذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴿١٤١﴾ ﴾.

لكن المعروف في تاريخ التشريع الإسلامي أن الزكاة فرضت في المدينة. فكيف يتفق هذا وذكر القرآن لها في آيات كثيرة من سور مكية ؟ يجيب القرضاوي: إن الزكاة التي ذكرت في القرآن المكي لم تكن هي بعينها التي شرعت في المدينة وحددت نصبها ومقاديرها وأرسل السعاة لجبايتها وصرفها وأصبحت الدولة مسئولة عن تنظيمها. والزكاة في مكة كانت زكاة مطلقة من القيود والحدود وكانت موكولة لأمان الأفراد وأريحيتهم وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المؤمنين[2].

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

(٢) فقه الزكاة للدكتور القرضاوي، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

مما تقدم يظهر أن أصل فرض الزكاة كان بمكة، أما تحديد الزكاة ذات المقادير وتحديد من تؤخذ منهم، ومن تصرف إليهم، فهذه لم تفرض إلا بعد الهجرة النبوية وفي الفترة المكية نجد اهتماماً كبيراً بتربية الأخلاق وقواعد السلوك وأن هذا الجانب قد شغل مساحة كبيرة في السور والأيات المكية، وذلك لارتباط الأخلاق بالعقيدة.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز وهو يتكلم عن دستور الأخلاق في الإسلام: « ومن المعلوم أن القرآن الذي يقوم في هذا النظام بالدور الرئيسي لم يجيء إلى الناس كتاباً جملة واحدة على نحو ما نراه اليوم فقد ظهر بعكس ذلك نجوماً تتفاوت في كمها خلاف نيف وعشرين عاماً تنقسم إلى مرحلتين متساويتين تقريباً: المرحلة المكية، والمرحلة المدنية.

ومن اليسير ملاحظة أن الأيات التي نزلت في المرحلة الأولى كان موضوعها الأساسي دعم الإيمان والقواعد العامة للسلوك وأن ما سوى تعاليم الصلاة والمعاش ـ وهو تطبيق هذه القواعد العملية في حلول المشكلات الخاصة اخلاقية والشرعية كان كله تقريباً مقصوراً على المرحلة الثانية.

ومن هذا الوجه نستطيع أن نقول: أن المرحلة المكية كانت في مجموعها نوعاً من الإعداد ولكن التطبيقات المقدرة والمحددة لهذه القواعد العامة قد توزعت بصورة متفاوتة على عشر سنوات.

لذلك نستطيع أن نقول بأن كل أمر جديد كان ينشيء في مجال التكليف تقدماً بالنسبةإلى الحالة السابقة ونقطة انطلاق بالنسبة إلى الحالة اللاحقة . . ثم يقول: إنه ليكفي أن نلاحظ هذه المجموعة من الأوامر المنفصلة بعضها عن بعض بمراحل تتفاوت طولاً وقصراً لكي نقف على أن منهجاً تربوياً بلغ الذروة في قيمته وذلك بغض النظر عن أسباب النزول التي تفسر وتصوغ إقرار كل واجب جديد. حسبنا أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث لو أن هذه الكثرة من الواجبات المتعلقة بجميع جوانب الحياة قد فرضت مرة واحدة وبصورة شاملة. أما وهي قد وزعت على هذا النحو فإن النفوس جميعاً قد تقبلتها بارتياح كامل حتى كانها كانت تزداد قوة واستعداد كلما كانت تمارس واجباً منها[1]. أ. هـ .

---

(١) دستور الاخلاق في القرآن، ص ٨٦، ط. دار البحوث العلمية بيروت .

قلت: وهذا ضرب من الإعجاز التشريعي، لأنه صادر عن أحكم الحاكمين وهو الذي عجز كفار قريش عن إدراك الحكمة في تنزيل القرآن منجماً ولم ينزل جملة واحدة. . .

كما كان ذلك بالنسبة للكتب السماوية الأخرى، وقد أثاروها شبهة كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]. فكان الجواب: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان].

وفي هذه الفترة وضعت اللبنة الاولى لنظام الأسرة باعتبارها القاعدة الأساسية للمجتمع. فحيث لم يكن تشريع تفصيلي لنظام الأسرة كالزواج والطلاق وحقوق الزوجية وحقوق الأبناء وما يتعلق بذلك فقد عرض لهذا الموضوع من الجانب الذي يمس العقيدة ويحض الإنسان على التفكير والتأمل في حكمة الله البالغة التي ربطت بين نفسين حتى لتكاد تجعلهما نفساً واحدة وجعل ذلك آية من آيات الله التي يجب التفكير فيها لأنه الطريق الصحيح للإيمان بالله يقول الله عز وجل في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أما تفصيل ذلك مثل الحقوق والواجبات فقد تم في العهد المدني، حتى إنا نجد سوراً بأكملها تناقش تلك القضايا، مثل ذلك سورة النساء والطلاق كما نجد ذلك مبسوطاً في سورة البقرة والنور والأحزاب والمجادلة وكلها سور مدنية.

وفي العهد المكي أمر الله بالعدل والإحسان وصلة القربى بين الناس ونهى عن الوقوع في الفحشاء والمنكر؛ وبغي الناس بعضهم على بعض ولنتدبر آية سورة النحل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

كما أمر بالوفاء بالعهد وعدم نقضه بغية لغدر بالطرف الآخر والحال أن الله شهيد على عقد العهد بين طرفيه: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴿٩١﴾ ﴾ [الروم].

فهذه الآيات البينات قد تناولت على مختلف معانيها مبادىء ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان؛ لأنها أساس المجتمع السليم، العدل، الإحسان وصلة

القربى والنهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ لأن ذلك المنهي عنه ما ظهر في مجتمع إلا كان وبالاً عليه ودماراً.

ولقد ذكر الله كثيراً من صور الهلاك الذي حدث بسبب ما ارتكبه الناس من المنكرات: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]. وفي سورة الإسراء يقول الله جل وعلا: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾.

وكذلك أمرت آية سورة النحل: بالوفاء بالعهد الذي هو أساس الثقة والطمأنينة بين الناس أفراداً وجماعات.

حق الوالدين:

كذلك وفي هذه الفترة من التوجيه الإلهي بالقيام بحق الوالدين والإخلاص لهما وطاعتهما في المعروف؛ لأنهما اللذان تسببا في وجود الولد ـ المراد به هنا الذكر والأنثى ـ ونلاحظ هذه الوصايا الإلهية في عدة سورة مكية: منها الإسراء ولقمان والأحقاف.

ففي سورة الإسراء: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾. فقد جاء الأمر هنا بالقيام بحق الوالدين عقب الامر بتوحيد الله وحصر العبادة له وحده جل وعلا؛ وما ذلك إلا لمكانة الوالدين عند الله تعالى.

وفي سورة لقمان يقول عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. تحض هاتان الآيتان على بر الوالدين وتذكر بما تلاقيه الأم من التعب والمشقة حالة الحمل واثناء الطلق وما يتبع ذلك من رضاعة وعناية وسهر على راحة المولود، فكان لابد من حفظ الجميل لهما.

ولما كانت طاعة الوالدين واجبة فقد حدد القرآن الكريم المساحة التي تكون فيها طاعة الوالدين فلا تتعداها، وهي الطاعة في المعروف، أما إن خرجت عن هذا النطاق إلى معصية الله والشرك به، فلا؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأمر الله تعالى بشكرهما بعد شكره مباشرة كما امر بالإحسان إليهما بعد ما نهى عن عبادة غيره معه جل وعلا في سورة الإسراء الآنفة الذكر، والشكر لهما يكون ببرهما والقيام بشؤنهما حال حياتهما كما يكون الدعاء وعمل كل خير لهما بعد موتهما.

يقول الشيخ الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴿١٤﴾ ﴾ الآية.

قال: قال سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى؛ ومن دعا للوالدين في الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين[1]. كذلك ذكر الإحسان إلى الوالدين في سورة الاحقاف: يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذه الآيات البينات وضعت أسساً أخلاقية عامة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة حتى إذا استقر الامر وقامت الدولة الإسلامية كانت التشريعات الفرعية التي تحفظ وتنظم شئون الأسرة، وترى حقوق الوالدين والأولاد ـ كما ذكر ذلك مفصلاً في سورة البقرة[2]، والنساء[3]، والنور[4].

---

(١) تفسير الجلالين، حاشية الجمل، ج٣، ص ٤٠٥ .
(٢) آية رقم ٢٣ ـ ٣١ .
(٣) الآيات من ٧ ـ ١٣ .
(٤) الآية رقم ٥٨ ـ ٥٩ .

الباب الثاني

في

المقصد الاول من مقاصد السور المكية وهو:
إثبات التوحيد وإبطال الشرك وادلة ذلك

المبحث الأول

في الدعوة إلى توحيد الله تعالى

إن من أهم الموضوعات التي قصدت السور المكية إلى معالجتها، هو موضوع توحيد الله تعالى ونفي الشرك والشركاء.

فقد بعث الله نبيه محمد، ﷺ، على فترة من الرسل، في مجتمع جاهلي بعدت الشقة بينه وبين الوحي الإلهي إن لم تكن انقطعت تماماً؛ فعبد المخلوق دون الخالق، وأهمل العقل فاتبع الناس ما وجدوا عليه الآباء والأجداد في انحراف العقيدة وطمس الفطرة السليمة. فقالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

ولا حجة عندهم على صحة اتباعهم عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة[2].

فامتلأ المسجد الحرام بالأصنام، حتى لا تكاد تخلو دار من دورهم إلا وبها صنم يعبد من دون الله[3]؛ فاقتضت حكمة الله تعالى: أن ينزل القرآن الكريم في هذه ـ الفترة ـ أعني الفترة المكية لعلاج هذه القضية الهامة التي تمثل الأساس الذي يقوم عليه البنيان، أي قضية العقيدة وتصفيتها من الشوائب، وإخلاصها لله وحده من غير شريك ولا وسيط؛ لأنه إذا صحت العقيدة وكمل إيمان الفرد سهل عليه بعد ذلك، تقبل الأحكام الشرعية والإذعان لها.

يبين كل ذلك الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري بسنده عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، قال: حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند

---

(١) أي على دين ـ وأصل الأمة الطريقة التي تؤم ـ أي تقصد.

(٢) تفسير البيضاوي، ج ٥، ص ٥٩ .

(٣) انظر المبحث الأول من الباب الثالث.

عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقي فقال أي الكفن خير ؟ قالت: ويحك وما يضرك ؟ قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك. قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف.

قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام.

ولو نزل أول شيءٍ: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً.

لقد نزل على محمد، ﷺ: (وإني لجارية ألعب) ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر].

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . . قال فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور[1].

فهذا الحديث الشريف يبين أن القرآن في عهده الأول إنما عالج قضية العقيدة حتى إذا عرف الناس ربهم وعلموا أنه لا إله معبود بحق إلا الله وعادوا إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ كان التشريع وكان تبيين الحلال والحرام.

يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه «دراسات قرآنية»: لم يكن في العهد المكي الذي استغرق كله الحديث عن العقيدة ومعظمه في الحديث عن الإيمان بالله، لم تكن هناك تكاليف بالمعنى الذي جاء هناك فيما بعد في العهد المدني سواء التكاليف التعبدية ـ فيما عدا الصلاة ـ أو التكاليف التشريعية والتنظيمية أو الجهاد بالنفس أو المال.

لكن هناك الإعداد النفسي والروحي لهذه التكاليف. كان هناك الوصول بالذروة الإيمانية إلى مرحلة التسليم لله والطاعة من حيث المبدأ. والطاعة في الكبيرة والصغيرة حباً لله وخشية لله وعبادة لله[2]. أ. هـ.

أقول: لقد واجه النبي، ﷺ، الشرك وتعدد الأصنام التي أقامها العرب حول

---

(١) ج٣، ص ٢٢٨، صحيح البخاري .
(٢) ص ٥٩ ـ ٦٠.

الكعبة وفي منازلاهم يخرون لها ساجدين من دون الله ويقدمون لها القرابين، فكان لابد من القضاء عليها أولاً وإخلاص العبادة لله وحده. نعم إنهم كانوا يقرون بالله خالق السموات والأرض، ولكنهم يعتقدون بعبادتهم لهذه الأصنام أنها تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى قولهم هذا القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]. أي من دون الله ليقربوهم إليه تعالى: ويؤيد اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

إنه إذاً الهوى واتباع النفس، ويوجه الله تبارك وتعالى نبيه، ﷺ، بأن يسأل هؤلاء المشركين لمن الأرض ومن فيها؟ ومن رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ ومن بيده ملكوت كل شيء ومن يجير ولا يُجار عليه؟ كما جاء ذلك في سورة المؤمنون: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

يقول البيضاوي[1] في تفسيره لهذه الآيات الكريمات: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك فيكون استهانة بهم وتقريراً لفرط جهالتهم حتى جهلوا مثل ذا الجلي الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مُسْكَة من العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال جل ذكره: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الأقرار بأنه خالقها: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. أهـ.

قلت: لقد انحرفوا عن العقيدة الصحيحة بإشراكهم مع الله آلهة آخرين، وهذه الآيات قد ألزمتهم الحجة على أن إلههم هو الواحد الأحد الذي يعرفونه بآثاره ومظاهر قدرته التي لا يمكنهم نكرانها، فهي محسوسة مشاهدة وملموسة معايشة، يعيشونها في غدوهم ورواحهم في صباحهم ومسائهم في حركاتهم وسكناتهم،

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي.

ذلك من صنع الله، وليس من صنع هذه الأصنام التي يعبدونها. لقد عني القرآن الكريم في هذه الفترة بزلزلة هذه المعتقدات الفاسدة وهدم أركانها، ولجأ في ذلك إلى أسلوب الموازنة بين الإله الحق والآلهة المزعومة ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل].

ومن يسوي بين الإله الخالق ومَنْ لايخلق ؟ الذي يستحق الألوهية هو الإله الخالق، أما من لايخلق فلا يستحق أي مظهر من مظاهر التقديس والعبادة، ثم تلفت الآيات الكريمة نظرهم إلى نعم الله التي أنعم عليهم والتي يستحيل حصرها وعدها عليهم فلم يبق أمامهم أن كانوا عاقلين إلا الشكر . ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ .

ثم تخلص الآيات إلى النتيجة الحتمية التي ينبغي ألا يتشكك فيها متشكك وهي: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

فالعبادة الصحيحة ينبغي أن تتجه إلى إله واحد تلتف حوله القلوب وتخضع له الأفئدة ويخر الناس له ساجدين، فتتحد مشاعرهم وأهدافهم ومناهجهم وأغراضهم بدلاً من هؤلاء الشركاء المتشاكسين. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

ويستمر القرآن الكريم في النعي على هؤلاء المشركين في تمسكهم باتخاذهم شركاء مع الله ففي سورة الأنعام يوجه الله تبارك وتعالى نبيه محمداً، ﷺ، أن ينكر عليهم هذا المعتقد الفاسد ـ فكيف يتخذون أولياء من دون الله وهم يرون آثاره في السموات والأرض وفيما خلق بينهما من المخلوقات وما تكفل به من إطعامها وإيوائها وهو وحده المتصرف في هذا الكون: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام].

قال الخازن عند تفسيره لهذه الآيات: قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ ولياً يعني رباً ومعبوداً وناصراً ومعيناً، وهو استفهام ومعناه الأنكار أي لا أتخذ غير الله ولياً: ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿١٤﴾ ﴾ يعني وهو يرزق ولا يُرزق.

وصف الله ـ عز وجل ـ نفسه بالغنى عن الخلق، وباحتياج الخلق إليه، لاستغنائه ـ

سبحانه وتعالى ـ عن الأطعام فهو غني عن الخلق؛ ومن كان كذلك وجب أن يتخذ رباً وناصراً[1].

قلت: يؤيد ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

وفي آيات اخرى من سورة الأنعام نجد تاكيداً لإبراز قضية الوحدانية وأنها تجب لله وحده دون سواه، ذلك لأنه خالق هؤلاء الشركاء المعبودين من دون الله بالباطل سواء كانوا ملائكة أم بشراً جناً أم غير ذلك مما عبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الانعام].

ففي هذه الآيات رد على المشركين الذين أشركوا مع الله غيره من مخلوقاته في عقيدتهم وعباداتهم.

يقول ابن كثير في تفسيره: هذا رد على المشركين مع الله غيره وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة. تعالى الله عن شركهم وكفرهم. ثم يثير ابن كثير عليه، رَحِمَهُ اللَّهُ، سؤالاً: كيف يعبدون الجن والمعلوم أنهم عبدوا الاصنام ؟ ثم قال:

فالجواب أنهم ما عبدوهم ـ أي الأصنام ـ إلا عن طاعة الجن وامرهم إياهم بذلك كقوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ۖ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[2] ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا

---

(١) تفسير الخازن جـ٢ ص١٢٢.

(٢) أي يشقونها لتحريم ما أحل الله وهي عبارة عما كان يفعله العرب قبل الإسلام.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء].

وكقوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف].

وقال إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم].

وكقوله تعالى في سورة يس: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ].

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام]. أي وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له فكيف يعبدون معه غيره ؟.

وكقول إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات]. ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام]. فيه تنبيه على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قاله من اليهود في عزير ومن قاله من النصارى في عيسى ومن قاله من مشركي العرب في الملائكة أنهم بنات الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾[1] [الإسراء].

قلت: قد يقول قائل: إنَّ مما استشهد به ابن كثير آيات مدنية في سورة مدنية وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ۖ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ ﴿١١٨﴾ ﴾ إلى اخر الآيات. [النساء]. والبحث يتعلق بمقاصد السور والآيات المكية فكيف ذلك وهذه آيات من سورة النساء وكلها مدنية ؟.

أقول: إن القرآن الكريم بعهديه المكي والمدني نزل لهداية الإنسان والخروج به من الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور، وإن الفترة المكية فعلاً تمتاز بأنها وضعت أساس العقيدة وما يتعلق بها، ولما كانت العقيدة هي الأساس الذي يقام عليه البناء؛ كان لابد من متابعة ذلك في العهد المدني، فعندما نجد أمثال

---

(١) ج٢، ص ٥٥٥ تفسير ابن كثير .

ذلك في السور المدنية؛ فإنما ذلك لترسيخ هذه العقيدة وتاصيلها.

يقول الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن: إن القرآن الكريم كله قام على رعاية حال المخاطبين فتارة يشتد وتارة يلين تبعاً لما يقتضيه حالهم سواء منهم مكيهم ومدنيهم بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد وتسامح وتشديد وجذب وشد[1]، فلا غرابة أن نجد أن ما اختصت بمناقشته السور المكية له متابعات في السور المدنية.

فعلى سبيل المثال نجد آيات في سورة البقرة[2] تتكلم في شأن العقيدة. وكذلك سورة آل عمران[3]، وغيرهما لكن ذلك غير الغالب في السور المدنية لأنها قد اختصت بالتشريع وتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية، وحينما تجد الكلام عن العقيدة في السور المدنية فغالباً ما تكون له أسباب تقتضي ذلك.

فمثلاً نجد أن آيات سورة النساء التي تقدم ذكرها قد نزلت في شأن بشر بن أبيرق الذي ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين كما ذكر ذلك الترمذي في كتاب التفسير[4] فتكون القضية من قبيل القضايا التي عالجتها السور المكية.

ثم نمضي في عرضنا لإبراز قضية التوحيد فنقف مع آيات سورة الأعراف وهي كما نعلم سورة مكية إجماعاً قد بسطت قضية التوحيد في عرض تاريخي للرسل وكل من عرضت قصته مع قومه كان اول مايبدؤ به: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف]. فقد قالها نوح، عليه السلام، كما أخبر بذلك القرآن الكريم.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف].

وقالها رسول الله هود، عليه السلام، بقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن. ج١، ص ٢٠٤، ط الحلبي.
(٢) الآيات من ١٦٣ ـ ١٦٧ وآية ٢٥٥ .
(٣) الأيات من ١ ـ ١٨ .
(٤) ج٥، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وقالها صالح، عليه السلام: يقول تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف].

ونادى بكلمة التوحيد هذه نبي الله شعيب، عليه السلام، كما قص علينا ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وجاء بهذه الكلمة من عند الله وبشر بها رسل الله جميعاً كموسى وعيسى وغيرهما، عليهم السلام جميعاً.

ولم يكن رسول الله، ﷺ، بدعاً من الرسل جاء بمثل ما جاءوا به من دعوة التوحيد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴿٩٠﴾ ﴾.

جاء ذلك عقب ذكر الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الأنعام[1] .. وفي هذا الاتجاه جاء قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف].

---

(١) الآيات من ٨٣ ـ ٨٧ .

إن هذه الآيات البينات تعكس حال المشركين وقد انحرفوا عن الدين الحق الذي هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها واتخذوا من دونه الشركاء. فكان توجيه الله لنبيه، ﷺ، بمواجهتهم لتسفيه هذه الآلهة المزعومة وأنها عاجزة عن نصرة نفسها وبالتالي نصرتهم.

ثم كان إعلان النبي، ﷺ، الواضح الصريح الذي لا لبس فيه ولا غموض: إن وليه وناصره هو الله وحده الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

وتكشف آيات سورة يونس هؤلاء الذين لم يفردوا الله بالوحدانية وهو المتصرف وحده في الخلق والرزق والإحياء والإماتة وما بين ذلك وما بعد ذلك. ومع انهم قد اعترفوا بأن الله هو الخالق لكنهم خلطوا هذا الاعتراف إشراكهم مع الله آلهة آخرين اتخذوها زلفة تقربهم إلى الله جل وعلا كما زعموا ذلك؛ ومن هنا كان الضلال وتنكب الصراط المستقيم.

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً، ﷺ، ليسأل هؤلاء القوم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس].

يقول الأستاذ سيد قطب، رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس].

والحق واحد لا يتعدد ومتى تجاوزه وقع على الباطل وقد ضل الطريق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون. وكيف توجهون بعيداً عن الحق وهو واضح تراه العيون ؟.

بمثل هذا الانصراف عن الحق الواضح الذي يعترف المشركون بمقدماته وينكرون نتائجه اللازمة ولا يقدرون مقتضياته الواجبة قدر الله في سننه ونواميسه إن الذين يفسقون[1] عن منطق الفطرة السليم وسنة الخلق الماضية لا يؤمنون: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس]، لا أنه يمنعهم

---

(١) أي يتمردون.

من الإيمان، فهذه دلائله قائمة في الكون وهذه مقدماته قائمة في اعتقادهم؛ ولكن لأنهم هم يحيدون عن الطريق الموصل إلى الإيمان ويجحدون المقدمات التي في أيديهم ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم[1]. أ. هـ.

وفي « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير يقول: أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله إنهم أشقياء من ساكني النار كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[2] [الزمر]. ويقول الإمام الألوسي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة في كتابه روح المعاني، يقول، رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي حكمه على الذين فسقوا أي تمردوا في الكفر وخرجوا إلى أقصى حدوده والمراد بهم أولئك المخاطبون[3]. أ. هـ.

ثم أمر الله رسوله، ﷺ، أن يعلنها صريحة لا لبس فيها ولا غموض أن لا تقارب بين طريقته الربانية وطريقة المشركين الوثنية: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾. أخصه وحده بالعبادة لا أشرك معه غيره، ونستمر مع التوجيهات الألهية للرسول الكريم، ﷺ: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

وهو خطاب للنبي، ﷺ، والمراد غيره، أي أُمته.

يقول الشوكاني في فتح القدير: وهو من باب التعريض لغيره، ﷺ[4].

وهذا يوسف، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو في السجن يلتقي بسجينين فيلين لهما الكلام ويعرض عليهما قضية التوحيد في أسلوب تقريري ويخلص من عرضه بأن العبادة

---

(١) في ظلال القرآن، ج١١، ص ٤١٧ .
(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٤١٦ .
(٣) تفسير روح المعاني، ج١١، ص ١١٣ .
(٤) جـ٢ ص٤٧٧.

يجب أن تكون لله وحده، أما عبادة غيره فهي عمل غير صالح ما ينبغي لعاقل أن يقع فيه.

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴿٤٠﴾ ﴾... أي الأشياء باعتبار أسماء أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها[1]

ومن العبادة ـ بل هو مخها وروحها ـ الدعاء فهو الذي يظهر فيه صاحب الحاجة في تذلل وخضوع إلى من بيده العطاء والمنع حقيقة ـ وهو الله ـ لكن هؤلاء المشركين انحرفوا عن الصواب ووجهوا دعاءهم إلى تلك الآلهة المزعومة يطلبون منها قضاء الحاجات. فلا يستجاب لهم لأنهم لم يطلبوها من جهتها التي تستجاب منها. قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال ابن كثير: قال علي﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ التوحيد... وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ معان عديدة: قال الشوكاني: إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة أي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا محل للباطل فيها بوجه من الوجوه، كما يقال كلمة الحق. والمعنى أنها دعوة مستجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه.

وقيل: هو الحق سبحانه، والمعنى: إن لله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب، وقيل المراد بدعوة الحق هي كلمة التوحيد والأخلاص.

---

(١) تفسير البيضاوي جـ٣.

والمعنى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له[1]. أهـ.

قلت: هذه الأقوال جميعاً لا تخرج عما نرمي إليه من الدعوة إلى توحيد الله تعالى. وهو ما تعنيه الآية الكريمة من توجيه الخلق إلى الإلتجاء إلى خالقهم وحده فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؛ لأن الأمر كله بيده ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنعام].

وما دام الأمر كذلك فينبغي أن يوحد في كل الأمور الصغير منها والكبير، الخفي منها والظاهر، إن التجاء المخلوق إلى غير الخالق لا يجني منه إلا الخيبة والندم: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء].

وفي تعليقه على آية سورة الرعد المتقدمة يقول الأستاذ سيد قطب: والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهث. فدعوة واحدة هي الحق، وهي التي تحق، وهي التي تستجاب إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه، وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء، ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء، انظروا هذا واحد منهم ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه وفمه مفتوح يلهث بالدعاء يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه وما هو ببالغه بعد الجهد واللهث والعناء. وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء. ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرعد]. [2] أ. هـ.

قلت: هذا مصير كل من كفر بربه وأشرك معه غيره، ولقد ضرب القرآن الكريم كثيراً من هذه الأمثلة وعرض كثيراً من هذه الصور ليأخذ الإنسان منها العبر ولتكون مشاعل نور في الليل البهيم. قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾. وهو مثل ضربه الله لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، فبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها

---

(١) فتح القدير جـ٣ ص٧٣.

(٢) في ظلال القرآن، جـ١٣، ص٨١.

وهم أحوج ما كانوا إليها[1] ، نعوذ بالله من عمل لاينفع، وهي نتيجة عمل كل من اتخذ إلهه هواه وترك النور خلفه وسار في غيه وعماه ، فأضله الله، لأن المتبصر بهذا الكون يرى الآيات ناطقة بوحدانية الخالق وما بسط فيه من النعم كفيلة بأن تقنع كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولهذا كان النهي الإلهي من اتخاذ إلهين اثنين والاعتماد على إله واحد يداوم على عبادته وطاعته. قال تعالى: ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥ ﴾ [النحل][2].

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ ﴾ [الإسراء].

يقول ابن كثير، رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره، ليقربوهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه تشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون عنده الوسيلة والقربى فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه. فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقال: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ ﴾[3]. أ. هـ.

ولقد ورد مفهوم آخر لهذه الآية الكريمة: أنه تعالى لو كان معه آلهة لنازعته وصاولته، ولكن ذلك لم يحصل ولن يحصل . وقد ذهب الشوكاني فقال في «فتح القدير»: ﴿ لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ ﴾ طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم من المقاتلة والمصاولة[4].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، جـ٢، ص٥٢٧.
(٢) واصباً: أي دائماً.
(٣) تفسير ابن كثير، جـ٣،ص٤١.
(٤) ج٣، ص٢٣٠.

قلت: إن ما ذهب إليه ابن كثير، رَحِمَهُ اللَّهُ، تعالى في فهم هذه الآية من أن المراد منها:

هو تقربهم إليهم يبتغون عنده الوسيلة جائز لأن المشركين في تعليلهم لاتخاذ الشريك لله قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. لكن يظهر لي - والله أعلم - أن المقام هنا مقام تحد ومنازعة فلا يبعد أن يكون المراد هنا: إن كان الأمر كما زعمتم لاتخذ هؤلاء سبيلاً لمغالبة الله، تعالى، ومنازعته فنزه الله تعالى نفسه عن ذلك وقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ وعلى كل فالمراد هو نفي الشريك لله تعالى وانفراده بالوحدانية وهذا مارمت إليه الآية الكريمة. . . .

ونستمر مع القرآن الكريم في عهده المكي وهو يبرز هذا المقصد فنجد في سورة الأنبياء على سبيل المثال - وموضوعها العقيدة وما يتعلق بها - قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال ابن كثير، رَحِمَهُ اللَّهُ: ينكر الله، تعالى، على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك ؟ فكيف جعلوها وعبدوها معه ؟.

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود غيره لفسدت السموات والأرض. فقال لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، أي في السماء والأرض. كقوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال ههنا: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أي دليلكم على ما تقولون، هذا ذكر من معي - يعني القران - وذكر من قبلي - يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وما تزعمون.

فكل كتاب أنزل على نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله. ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم عنه معرضون - ثم قال تعالى مذكراً نبيه، ﷺ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، وكما قال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة[1] عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد[2]. أ.هـ.

إن ما عبدوه من دون الله لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بل هو لا يملك لنفسه الضر والنفع، بل هو أضعف من أن يسترد مايسلبه منه الذباب، فكيف جاز لهؤلاء أن يدينوا له بالعبادة؛ ولهذا ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً بذلك فقال جل ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج].

بل من اتخذ ولياً من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً من نسيجها وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، كما جاء في قوله جل وعلا: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت].

قال الخازن: مثل الذين اتخذوا من دونه أولياء، يعني الأصنام يرجون نصرها ونفعها، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لنفسها تأوي إليه وإن بيتها في غاية الضعف والوهن لا يدفع عنها حراً ولا برداً فكذلك الأوثان لا تملك لعابدها نفعاً ولا ضراً. . . وأورد معنى آخر لهذا المثل فقال:

إن المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل

---

(١) داحضة أي: باطلة.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٥، ص٢٣٠ ـ ٣٣١، ط. دار الشعب.

العنكبوت تتخذ بيتاً من نسيجها، بالإضافة إلى رجلٍ بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر. فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان؛ لأنها لا تضر ولا تنفع. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ إشارة إلى ضعفه، فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر، فقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت: أي أن هذا مثلهم وإن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن[1]... أ.هـ.

ويقول الدكتور محمد محمود حجازي في كتابه« التفسير الواضح»: ولعل السر في اختيار لفظ الأولياء بدل الآلهة إبطال الشرك الخفي وهو العبادة للرياء والسمعة فإن من يفعل ذلك يصدق عليه أنه اتخذ من دون الله ولياً[2] .

وفي آيات أخر يأمر الله نبيه محمداً،ﷺ،بأن يسأل هؤلاء المشركين عن هذه الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله، ماذا خلقوا من الأرض ـ أم لهم شرك في السموات ؟ إن كان الأمر كذلك فليأتوا من الكتب التي سبقت القرآن بكتاب يؤيد دعواهم أو أي بقية من علم إن كانوا صادقين فيما يدعون: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

ثم أخبر تعالى بما يحصل من العداوة بين المشركين والشركاء يوم الدين، يوم الحشر والجزاء: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

إن قضية التوحيد هي مقصد من المقاصد الأساسية التي عالجتها السور والآيات المكية وأبرزتها بمختلف الأساليب والصور وإن ما أوردته لا يمثل إلا قدراً يسيراً لما ورد في هذا الشأن في السور المكية. وأتوج هذا المبحث بسورة الإخلاص التي ورد في سبب نزولها على ما جاء في مسند الإمام أحمد قال: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغاني حدثنا أبو جعفر الرازي حدثنا الربيع بن

---

(١) تفسير الخازن، ج٥، ص١٩٣، ط. مصطفى البابي الحلبي.
(٢) ج٢، ص٦٩.

أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي، ﷺ، أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص]. (١)

وكذا رواه الترمذي وابن جرير الطبري عن أحمد بن مُنيع. وزاد ابن جرير - ومحمد بن خداش - وزاد الترمذي قال: « الصمد » الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث ولم يكن له كفواً أحد، ولم يكن له شبه ولا عدل وليس كمثله شيء.

أكتفي بهذا القدر وبالله التوفيق.

(١) مسند الإمام أحمد، ج٥، ص٣٣ ، ١٣٤.

المبحث الثاني

في مناقشة المشركين في معتقداتهم الفاسدة وإبطال الشرك بالله

عرضنا في المبحث السابق موقف المشركين من قضية الوحدانية، وتبين لنا أنهم لا حجة عندهم في إشراكهم مع الله آلهة آخرين، وإنما انقادوا في ذلك لما وجدوا عليه الآباء والأجداد. ولما جاءهم الحق من عند الله أخذتهم العزة بالإثم فقالوا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزخرف]. فظهر أن قولهم هذا لايسنده عقل ولا نقل.

ومن خلال تأملاتنا الآيات القرآنية التي كشفت لنا سوء حالهم وفساد رأيهم، تبين كذلك أنهم يعتقدون اعتقاداً فاسداً، وذلك بنسبتهم الولد إلى الله تعالى، وهذا ما حملني لإفراد هذا المبحث لمناقشة هذه القضية وإبطال الشرك بالله في أي صورة من صوره. وهذه الفرية قد قالها أهل الكتاب من يهود ونصارى، كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم. فقد قالت اليهود إن عزيراً ابن الله وذلك كما يقول الطبري: من أجل أن عزيراً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها وما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق. وكان التابوت فيهم فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم. وأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبده، حتى نسوا التوراة ونسخت من صدورهم وفيهم عزير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم. وكان عزير قبل من علمائهم فدعا عزير الله وصلى وابتهل أن يرد إليه الذي نسخ من صدره من التوراة. فبينما يصلي مبتهلاً إلى الله نزل نور من الله في جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة. فأذن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إلي ـ فعلق ـ فبدأ يعلمهم فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير

يعلمهم فوجدوه مثله. فقالوا والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله[1]. أ.هـ.

فمن خلال هذه القصة تظهر الشبهة التي جعلتهم يقولون هذه القولة النكراء عزير ابن الله.

كذلك قالت النصارى المسيح ابن الله وذلك، كما يقولون، لم يكن له أي علم ـ وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله[2]. وغير ذلك من خوارق العادات التي أظهرها الله على يديه.

يقول سيد قطب:

وقول النصارى: المسيح ابن الله وأنه ثالث ثلاثة فهو شائع مشهور، وعليه جميع مذاهبهم منذ أن حرف بولس رسالة المسيح القائمة على التوحيد كبقية الرسالات ثم أتمت تحريفها المجامع المتقدمة.

وجاء بعض مشركي العرب وقالوا الملائكة بنات الله.

ولقد حكى القرآن الكريم قول أهل الكتاب هذا فقال جل جلاله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة][3].

يقول البيضاوي في تفسير هذه الآية: إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو من كانوا بالمدينة. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب...[4].

«قوله: يضاهئون قول الذين كفروا من قبل»:

المراد: أما قول مشركي العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله أو اليهود على

---

(١) تفسير الطبري، ج١٠، ص٧٨.
(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٦٨.
(٣) المضاهاة: المشابهة.
(٤) ج٣، ص٦٦.

أن الضمير راجع للنصارى . . . بيضاوي.

ويقول سيد قطب: ولقد كان المفسرون يقولون عن هذه الآية: إن المقصود بها أن قولتهم ببنوة أحد لله تماثل قولة المشركين العرب ببنوة الملائكة لله . . . وهذا صحيح . . . ولكن دلالة هذا النص القرآني أبعد مدى.

ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديثاً بعد دراسة عقائد الوثنيين في الهند ومصر القديمة والإغريق مما اتضح معه أصل العقائد المحرفة عند أهل الكتاب، وبخاصة النصارى؛ وتسربها من هذه الوثنيات إلى تعاليم « بولس الرسول » أولاً، ثم إلى تعاليم المجامع المقدسة[1]. أ هـ.

ولقد تناول القرآن الرد على هذه الأقاويل في كثير من الآيات القرآنية من ذلك ما قاله الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[2] ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[3] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم]. وردت هذه الآيات البينات في سورة مريم بعد أن قرر الحق سبحانه وتعالى عبودية عيسى، عليه السلام، وكونه ولد من أم بلا أب فلا عجب في ذلك فإن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

فهي رد على ما زعمه الجميع . . . يقول ابن كثير في تفسيرها قول: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ . . . ﴾. يكاد يكون ذلك عند سماعهم هذه المقالة من فجرة بني آدم اعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو ولا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفيء له بل هو الأحد الصمد[4]. أ. هـ.

---

(١) في ظلال القرآن، ج٥، ص ٢٠٠ .

(٢) إذا قرىء بفتح الهمزة وبكسرها. قال ابن خالويه الإدّ والأدّ العجب وقيل المنكر العظيم. والادة الشدة وأدنى الأمر أي أثقلني.

(٣) يتفطرن قرىء بالتاء بعد الياء. الانفطار منه فطرة إذا شقه. والتفطير من فطرته إذا شققته. وقرأ ابن مسعود يتصدعن. وهو من باب التفسير.

(٤) تفسير ابن كثير، ج٣، ص١٣٨.

وقال الزمخشري في « الكشاف »: الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله كانوا بين كفرين: أحدهما القول بأن الرحمن يصح أن يكون والداً والثاني إشراك الذين زعموهم أولاداً في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمة لآبائهم فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] ـ ثم أعقبه بهدم الكفر الآخر ـ والمعنى ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا ويأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجىء إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشياً[1]... كلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم ومحيط بهم ويعلم أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم ـ ولا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد. أ هـ .

ولقد نزه الحق جل وعلا نفسه عن هذا الزعم في كثير من الآيات يقول تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

وفي سورة يونس: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولا سلطان لهم ولا بينة وقولهم هذا ما هو إلا تخرصاً ورجماً بالغيب: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف].

ومع هذا الكذب على الله فقد زاد بعض مشركي العرب في كذبهم وافترائهم على الله فجعلوا لله البنات ولهم البنين. وذلك ناتج عن استنكافهم من البنت ونظرتهم إليها وتأففهم منها ـ كما زعموا أن بينه وبين الجنة نسباً ... فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً، ﷺ، أن يستفتي هؤلاء المتقولين على الله بالكذب من أين لهم اصدار هذا الحكم: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات].

---

(١) ج٢، ص٥٢٦.

وأنه يحاصر أسطورتهم في كل مساربها ويحاجّهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التي يعيشون فيها وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ويعدون ولادة الأنثى محنة، ويعدون ولادة الأنثى مخلوقاً أقل من الذر، ثم هم هم الذين يدعون أن الملائكة إناثاً وأنهم بنات الله[1].

يقول الزمخشري في « الكشاف »: فاستفتهم معطوف على أو مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة[2]. أمر الله رسوله باستفتاء قريش عن وجه انكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهيتهم الشديدة لهن ووأدهم لهن واستنكافهم من ذكرهن . . . ثم يقول ولقد ارتكبوا ثلاثة أنواع من الكفر:

أحدها: التجسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام.

الثاني: تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعها لهم، كما قال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزخرف].

الثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه حيث أنثوهم.

ولو قيل لأقلهم وأدناهم فيك أنوثة أو شكلك شكل النساء للبس لقائله جلد النمر ولانقلبت حماليقه[3] وذلك في أهاجيجهم بين مكشوف . . .[4]. أ هـ .

فكيف إذا يحكمون ولم يشهدوا خلق الملائكة ولم يكن لهم سند ولا دليل على هذا الحكم المزعوم.

وزادوا على هذه الأسطورة أسطورة أخرى وهي أسطورة الصلة بينه سبحانه وبين الجنة ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات].

---

(١) في ظلال القرآن، ج٧، ص٧١ .

(٢) يقصد بذلك: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات].

(٣) حملاق العين بياض أجفانها أي يفعل ذلك غضباً مما وصف به.

(٤) تفسير الزمخشري، ج٣، ص ٣٥٤ .

فكما زعموا أن الملائكة بنات الله ـ زادوا في زعمهم بأن الجنة قد ولدتهم له. وذلك هو النسب والقرابة. والجنة تعلم أنها خلق من خلق الله وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله وما هكذا تكون المعاملة والصهر، وهنا ينزه الحق سبحانه ذاته عن هذا الإفك المتهافت: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1]. أ هـ.

فظهر مما تقدم بطلان معتقدهم هذا وفساده وإن الحق تبارك وتعالى منزه عما وصفوه به. وأنه غني عن الصاحبة والولد. وليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فسبحان الله وتعالى عما يصفون.

---

(١) في ظلال القرآن، ج٥، ص ٧٢.

المبحث الثالث

في لفت النظر إلى الآيات الكونية وما فيها من البراهين والأدلة على توحيد الله

إن المتأمل في القرآن الكريم وبخاصة في الفترة المكية يجد أنه لفت نظر الإنسان إلى الكون وما فيه من آيات عجيبة تدل على قدرة الخالق جل وعلا. وأنه قد ساق هذه الآيات الكونية ليجول الإنسان ببصره وعقله ليدرك من خلالها أن لها رباً أوجدها ودبَّر أمرها. وأن السموات والأرض ما خلقتا إلا بالحق. وأن الله قد سخر ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وما وجد على الأرض من بحار وأنهار وجبال وأشجار وغير ذلك، كله قد سخره للإنسان وأعطاه العقل ليهتدي به إلى حكمة الباري. ولهذا كان الإكثار من ذكر العلم والفكر والعقل في القرآن الكريم ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل].
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل].
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم].
﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يونس].

ومن ثم فإن الناظر في القرآن يدرك أنّ الإسلام يعرض على العاقل أن يفكر ويعرض عليه أن يتعلم وأن العلم والفكر جزءان من شخصية المسلم في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها أو باب معاش يرتزق منه، أو هواية عند بعض الأفراد. وإذ يعرض الإسلام العلم فلأنه بالعلم يعرف أن الإسلام حق: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾[1] [سبأ].

---

(١) كتاب الله جل جلاله، سعيد حوى، ص١٥.

ولقد نعى القرآن على من أهملوا عقولهم وقرعهم ووبخهم أشد التوبيخ وجعل جهنم مثواهم فقال في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

وسنورد في هذا البحث بعضاً من الآيات القرآنية التي تكشف لنا جانباً من هذا الكون من سماء وأرض وما بينهما وتسخير كل ذلك للإنسان ليعرف خالقه وليشكر نعمه التي لا تحصى.

يقول تبارك وتعالى في سورة إبراهيم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

جاء في ظلال القرآن قوله: إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد، ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء. وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله تبدع فيه يد القدرة وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر، وفي كل صورة فيه وظل. . . .

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادي الله وآلائه بالقياس إلى الإنسان، خط السموات والأرض يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات النابتة من الأرض بهذا الماء. فخط البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق، ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد ـ خط الشمس والقمر ـ فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر، خط الليل والنهار ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويزينها: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]. أ. هـ.

---

(١) في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

فهذه الآيات الناطقة بوحدانية الله، جل وعلا، وكمال قدرته يمرون عليها ليلاً ونهاراً وهم عنها معرضون، وكذلك يكثر الكلام حول خلق السموات والأرض بكثرة حتى يتنبه الغافلون، وتستيقظ قلوبهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء][1].

يلفت الله النظر إلى بدء خلق السموات والأرض وأنهما كانتا رتقاً مصمتتين متلاصقتين ـ أو أن السموات كانت لا تمطر ففتقها الله بالمطر والأرض كانت لا تنبت ففتقها الله بالنبات. ومهما قيل في ذلك فإن علم ذلك عند الله فإنه لم يشهد احداً من خلقه على خلق السموات والأرض بل ولا خلق أنفسهم.

يقول الأستاذ سيد قطب: وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا: ﴿ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾.

ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن. وإن كنا لا نعرف كيف كان فتق السموات والأرض. أو فتق السموات عن الأرض ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء نظرية فلكية. ولا نطالب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة. وقصارى ما يقال إن النظرية القائمة اليوم[2] لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال . . .[3] أ هـ.

---

(١) رتقاً وفي قراءة رتَقاً بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول ـ أي كانتا مرتوقتين. . ومعنى ذلك أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما أو كانت السموات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقهما الله وفرج بينهما أو فتحهما بالأمطار والنبات بعدما كانتا مصمتتين، ج٢، ص ٥٧٠ رازي.

(٢) وملخص هذه النظرية: هو أن المجموعة النجمية كالمجموعة الشمسية والمؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر كانت سوياً ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية. وإن الأرض كانت قطعاً من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت.

(٣) ص ٣٧٦، مجلد ٤ .

هذه العلامات تساق للإنسان ليعرف عن طريقها قدرة الخالق الباري وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فما باله ينكر ويتجبر وهو المخلوق من ماء مهين كان ينبغي أن يسلك طريق الخير والهداية ولكنه غافل لاه إلا من رحم ربك. ولو نظر لعرف: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾ [ق].

هذه مظاهر قدرته جل جلاله شاهدة ناطقة، ولكنهم أغفلوها فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بناها الله تعالى فهي قد بنيت بإحكام ورفعت بدقة كاملة وقدرة واسعة . . .

وكيف زينها بنجوم للناظرين. وليس لها فروج ولا عيوب. فهو الله الذي: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ . . . ﴾ [الملك]. سبحانك يا رب أنت القادر وغيرك العاجز:

وهذه الأرض أفلم ينظروا إليها كيف بسطها وألقى فيها رواسي شامخات وأنبت فيها نباتاً حسناً من كل صنف، يأخذ بالألباب ويستهوي القلوب ويسر الناظرين. ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ ﴾ [عبس].

ونستمر مع القرآن الكريم وهو يعرض مزيداً من صفات الكون على الناس؛ حتى يتيقنوا أن وراءها مدبر حكيم قادر عليم هو الله الذي لا إله إلا هو فهذه آيات سورة الغاشية ناطقة بذلك لكل عاقل متدبر: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾.

فهذه الإبل قد خلقت خلقاً عجيباً دالاً على تقدير مقدر شاهداً بتدبير مدبر، حين خلقها للنهوض بالأثقال، وجرها إلى البلاد الشاسعة، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من قادها بأزمتها:

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يس]. لا تعارض ضعيفاً ولا تمانع صغيراً. وبرآها طوال الأعناق لتنوء بالأثقال[1].

ويقول الأستاذ سيد قطب في تعليقه على هذه الآيات البينات: تجمع هذه الآيات الاربعة القصار أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله، حين تتضمن السماء والأرض والجمال « ممثلة لسائر الحيوان »، على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة. إن هذه المشاهد معروضة للنظر الإنساني حيثما كانت السماء والأرض والجبال والحيوان، أياً كان حظه من العلم والحضارة فهذه داخلة في عالمه وإدراكه، موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها. والمعجزة كامنة في كل منها وصنعة الخالق فيها معلمة لانظير لها. وهي وحدها كافية لأن توحي بحقيقة العقيدة الإلهية ـ عقيدة التوحيد . . . ويقول، رَحِمَهُ اللَّهُ: « وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن الكريم وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء. حيث للسماء طعم ومذاق وإيقاع وإيحاء كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء. والسماء بنهارها الواضح الباهر والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي . . . والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتن. والسماء بشروقها الجميل الحي السافر . . . أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذا رفعها بلا عمد، ونثر فيها النجوم بلا عدد؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟.

إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها. فلابد لها من رافع ولابد لها من مبدع. ولا يحتاج إلى علم ولا إلى كد ذهن فالنظرة الواعية وحدها تكفي. أنه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن].

﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الغاشية]. والجبال عند العربي بصفة خاصة ملجأ وملاذ وأنيس وصحاب. ومشهدها يوحي للنفس الإنسانية ـ بصفة خاصة

---

(١) انظر الكشاف، ج٤، ص ٢٤٧ .

جلالاً واستهوالاً، حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين وخشع للجلال السامي الرزين. والنفس في أحضان الجهل تتجه بطبيعتها إلى الله، وتشعر أنها إليه أقرب » أ هـ.

وهي خلق عجيب منها الكبير والصغير وكما اختلفت مساحاتها وأحجامها اختلفت ألوانها: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]. فهذه الآيات قد جمعت بين خلق الإبل والسماء والجبال والأرض ـ وربما سأل سائل عن سر هذا النظم لهذه الآيات الكونيات الأربعة ولقد أجاب الزمخشري، رَحِمَهُ اللَّهُ، على هذا السؤال فقال: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم[1]. أ هـ.

ومما ورد في هذا الشأن قسم الله تعالى ببعض مخلوقاته ومنها السماء وما فيها وما عليها: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ [الشمس].

فإنه سبحانه يقسم بهذه الخلائق والمشاهد الكونية كما يقسم بالنفس وما سواها ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى وأن يوجه إليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالة حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم. ومشاهد الكون وظواهره اطلاقاً بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر، وبينها وبين الروح الإنساني تجاوب ومناجات بغير نبرات ولا صوت وهي تنطق للقلب وتوحي للروح، وتنيط بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي . . .[2]. أ هـ.

ومن أجل ذلك كله توجه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب في شتى المواضيع تارة بالتوجيهات المباشرة وتارة باللمسات الحانية كهذا القسم بتلك الخلائق المشاهدة.

---

(١) ج٢، ص ٥٤٧ .

(٢) المجلد الثامن، ص٥٨٨.

ولقد ذكر لنا الحق جل وعلا أنه أودع في هذه الأرض من الآيات ما يدل كل عاقل متدبر إلى أن وراء الكون إلهاً قد أبدعه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذاريات]. الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة. فهم ناظرون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تاملها فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ويقيناً مع يقينهم.

كما وجه الله عز وجل الإنسان إلى أن ينظر إلى نفسه من خلقه وأوجده وزوده بالسمع والبصر وكل مقومات الحياة وجعله مكرماً عزيزاً وسط الخلائق: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

يقول الزمخشري في « الكشاف »: في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق مما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما تركز فيها من العقول، وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر.

دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له وما سوي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني. فإنه إذا حبس شيء منها جاء العجز وإذا استرخي أتاح الذل[1] . . . أ هـ.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولكنه الإنسان تعالى على الحق وتكبر وأصابه الغرور حتى سلك الوعر من المسالك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار].

فقد خلق الإنسان سوياً سالم الأعضاء معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر، فسبحان من خلق فسوى، وقدر فهدى، وخلاصة القول:

---

(١) ج٤، ص ١٦ ـ ١٧ .

إن القرآن الكريم قد دعا إلى النظر في آيات الله في السموات والأرض، وجعل من الكون محراباً للفكر وكتاباً للمعرفة ودليلاً على وحدة التدبير والنظام[1].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

(١) منهج القرآن في التربية للأستاذ / محمد شديد ط. مؤسسة الرسالة.

الباب الثالث

في

المقصد الثاني من مقاصد السور المكية وهو:
إثبات رسالة النبي ﷺ

المبحث الأول

في بيان حالة المجتمع الجاهلي قبيل البعثة المحمدية

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ على فترة من الرسل إلى الناس كافة وكان مبعثه بمكة، حيث انبعث النور الإلهي ليبيد الظلام الذي اكتنف العالم. فما هي الحالة التي كان عليها المجتمع آنذاك ؟.

يمكننا أن نعرف ذلك من خلال الصورة التي نقلها الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب[1] للنجاشي ملك الحبشة، حيث جاء وفد القرشيين[2] لاسترجاع المهاجرين الأوائل من الحبشة.

قال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله، لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فصدقناه وآمنا به واتبعناه[3].

فهذا النص يبين لنا الحالة التي كان عليها المجتمع العربي عامة، وفي مكة خاصة وهي العاصمة الدينية والتجارية والسياسية. حيث تبع ذلك تفكك في جميع شئون الحياة، فقد عمت الوثنية وغالوا فيها، وأولعوا بالأصنام حتى كان في جوف الكعبة وفنائها ثلاثمائة وستون صنماً.

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام أحد السابقين إلى الإسلام.

(٢) كان الوفد يتكون من: عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل.

(٣) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٣٦، ط. ثانية.

جاء في كتاب«فتح الباري بشرح صحيح البخاري» كتاب التفسير باب: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء].

قال حدثني الحميدي حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ـ ﷺ ـ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[1].

يقول الأزرقي[2] في كتابه «أخبار مكة»: وحفر إبراهيم، عليه السلام، جباً في بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانة البيت يلقي فيه ما يهدي للكعبة، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي«هبل» الصنم الذي كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالأزلام[3].

قلت: كان هذا الحال إلى فتح الله على نبينا ـ ﷺ ـ مكة فأزال هذه الأصنام وطهر البيت من رجسها، كما تقدم.

كذلك تفككت روابط المجتمع الأسرية، وفشا فيها الزنا، وتعددت صور الأنكحة الفاسدة. فقد روى البخاري بسنده عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، قالت: إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

١ـ **فنكاح منها**: نكاح الناس اليوم بخطب من الرجل الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها.

٢ـ **والنكاح الآخر**: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يثبت حملها فيصيبها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد. فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

---

(١) فتح الباري، ج٨، ص ٤٠٠.

(٢) هو أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي ت سنة ٢٢٣هـ.

(٣) الأزلام جمع مفردها زلم: وهو السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، ٢ج١، ص٦٥.

٣ـ **ونكاح آخر**: يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة وكلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها. ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

٤ـ **والنكاح الرابع**: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة ولا تمتنع ممن جاءها ـ وهن البغايا ـ كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة[١] ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون. ودعى ابنه ولا يمتنع عن ذلك.

ومن الأمراض التي كانت متفشية في المجتمع قبيل البعثة المحمدية:

شرب الخمر: فقد كانت هذه العادة الذميمة متفشية فيهم حتى سجلوها في شعرهم ونثرهم وشغلت مساحات كبيرة من الشعر الجاهلي، كما كثرت أسماؤها وصفاتها ووصفت مجالسها وما يدور فيها. وكانت الخمارات مفتحة الأبواب دائماً يرفع عليها علم يسمى الغابة[٢] كما كانوا يلعبون الميسر لا ينفكون عنه إلا ما ندر.

قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره. فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً[٣].

وبجانب ذلك كله كان الربا:

فقد كان أهل الحجاز من العرب واليهود يتعاطون الربا، وكان فيها فاشياً وكانوا يبلغون فيه حد الغلو والقسوة.

قال الطبري: كان الربا في الجاهلية في الأجل وفي السن. يكون للرجل

---

(١) من قفا أثره تبعه ـ وبابه عدا وسما .
(٢) المخصص لابن سيده، ج١١، ص٨٢.
(٣) تفسير الطبري، ج١٠، ص ٥٧٣ .

فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له: تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه، وإلا حوله إلى السنة التي فوق ذلك، إن كانت ابنة مخاض[١] يجعلها ابنة لبون[٢] في السنة الثانية، ثم حقه[٣]، ثم جذعة[٤]، ثم رباعياً[٥]، هكذا إلى فوق.

وفي العين فإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً. فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين؛ فإذا لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه.

ومن عاداتهم الذميمة معاملتهم القاسية للمرأة حتى كادوا يجردونها من إنسانيتها؛ فهي تؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم من نصيبها من الإرث؛ وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه. وبعبارة أخرى فهي تورث كما يورث المتاع. والآية التي توضح لنا ذلك آية سورة النساء حيث يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه فهو أحق بامرأته إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدي بصداقها فيذهب بمالها.

وقال عطاء بن أبي رباح: « إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم .... ».

وقال السدي: « إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو يُنكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق

---

(١) ابنة مخاض: هي التي أوفت سنة ودخلت في الثانية.
(٢) ابنة لبون: هي التي أكملت سنتين ودخلت في الثالثة.
(٣) حقه: هي التي أكملت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة.
(٤) جذعة: هي التي أكملت أربع سنين ودخلت في الخامسة.
(٥) رباعياً: هو الذي بين الثنية والناب.

بنفسها »[1].

ومن العادات الممقوتة التي كانوا عليها: قتل أولادهم خشية الإملاق وبناتهم خشية العار ولذلك نهى القرآن الكريم عن هذه العادة الذميمة وبين لهم بأن الرازق هو الله تعالى وأن فعلهم هذا هو خطأ كبير. قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].

وفي سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

وعندما يبشر أحدهم بأنه رزق بنتاً؛ كانت الدنيا تسود في عينيه وتعلو الكآبة وجهه من سوء ما بشر به كما حكى ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل].

وقد حصل ودسوها في التراب كما ذكر ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير]، ووإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم ؟[2].

هذا بالإضافة إلى انتشار العصبية القبلية وسيادة مبدأ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وليس المراد بذلك رد الظالم بل دفع الظالم لارتكاب مزيد من الظلم كما صور ذلك شعراؤهم، يقول زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدَّم
ومن لا يظلم الناس يظلم[3]

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم« ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: بعث محمد ـ ﷺ ـ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً،

---

(١) تفسير الطبري، ج٤، ص٣٠٨ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٤٧٧ .
(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٨٨ طبعة دار بيروت للطباعة والنشر.

فإذا كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ومنه مالتوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل بمكان آخر، ومنه ما تكدس وتكوم. نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر، رأى إنساناً معكوساً، قد فسدت عقيدته فلم تستسغ البديهيات وتعقل الجليات. وفسد نظام الفكر فإذا النظري عنده بديهي، وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلي على المر، ويستطيب الخبيث، ويستمرىء الوخيم، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح، رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله. وقد أصبح فيه الذئب راعيا، والخصم الجائر غاصبا، وأصبح فيه المجرم سعيدا طيبا، والصالح محروما شقيا . . . أرى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها إلى هوة الهلاك. رأى معاقر الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب، واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهم، ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد[1].

قلت: يؤكد كل ذلك في إيجاز قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة]. فقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هو الوصف الصادق للحالة التي سبقت المصطفى، ﷺ.

ومع هذا كله فقد كان هناك نفر ذوو عقل وبصيرة قد رفضوا ما عليه قومهم من الشرك ولجؤوا للبحث عن ديانة يدينون بها للخالق جل وعلا قال ابن إسحاق:

واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به ـ أي يطوفون حوله ـ وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً.

فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٨٩ ـ ٩٠، ط. عاشرة دار القلم، بيروت.

على بعض قالوا أجل ـ وهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وعبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر صبره بن مدة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة وكانت أمه أمية بنت عبد المطلب وعثمان بن الجويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي. وزيد بن عمرو بن نفسي بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رباح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.

قال بعضهم لبعض:

تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء فنفروا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم[1].

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتاب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب وأما عبد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة. فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً. وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم تنصر وحسنت منزلته عند الملك. ووقف زيد بن عمرو بن نفيل فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية. وفارق دين قومه فاعتزل الأديان والميتة والدم والذبائح التي ذبحت على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال اعبد رب إبراهيم وبادي قومه بعيب ماهم عليه[2]، وكان على ذلك حتى مات بجبل حراء.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص٢٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٢٤.

المبحث الثاني

في إنكار المشركين أن يكون الرسول من البشر

في هذا الجو العاتم بظلام الشرك والوثنية، المضطرب بالجور والظلم المليء بالفساد في كل نواحي الحياة، الذي تاه فيه البسطاء وحار فيه العقلاء، كان ظهور البعثة المحمدية حيث أرسل الله رسوله محمد بن عبد الله على رأس الأربعين من عمره المبارك، بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه أول ما أنزل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق].

وأنزل عليه أيضاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ [المدثر].

فنهض بأمر الله وبدأ بأهل بيته، زوجه خديجة ومولاه زيد بن حارثة. وهكذا استمرت الدعوة، حتى جاء الأمر الإلهي بإنذار عشيرته الأقربين. كان ذلك بعد ثلاث سنين من بداية الدعوة الإسلامية فأنزل الله عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ﴾ [الشعراء].

فصنع لهم طعاماً ودعاهم في بيته فدعاهم إلى الله تعالى، ولكن عمه أبا لهب قطع عليه حديثه واستنفر القوم ليقوموا. وكرر لهم الدعوة مرة أخرى ـ ثم تجاوز عشيرته إلى قومه فصعد الصفا يوماً ونادى: يا معشر قريش، قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه ماله؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون ؟. قالوا: نعم. أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يل بني زهرة يا بني تيم يا بني مخزوم يا بني أسد إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن

تقولوا: لا إله إلا الله..

وهنا نهض أبو لهب[1] وصاح تباً لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا[2]. فكان الرد الإلهي على أبي لهب وأمثاله قرآناً يتلى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد].

لم يكن غضب أبي لهب ولا رؤساء قريش بمانع رسول الله ﷺ من السير في طريق الدعوة إلى الله، برغم أنهم حملوا لواء المعارضة وأخذوا يشنونها حرباً بشتى الوسائل كي يثنوا رسول الله من المضي فيما هو فيه، وتعجبوا أن يكون الرسول من البشر ولم يصدقوا أن بشراً له خصائص الإنسانية يتصل بالله تعالى عن طريق ملك يوحى إليه من ربه. ولئن عجبوا من ذلك فقد عجب قبلهم قوم نوح حين جاءهم رجل منهم رسولاً بشيراً ونذيراً كما قص ذلك علينا القرآن الكريم في محكم آياته. قال تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ ﴾ [هود].

وكذلك عجب عاد قوم هود أن يكون الرسول بشراً يقول تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ ﴾ [الأعراف].

ولما جاء رسول الله ﷺ، أنكر بعض القوم مبعثه لأنه بشر قائلين: ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ ﴾ [الإسراء]. ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۝٧ ﴾ كما يمشون. لأن الرسول كما يتخيلون يجب أن يكون من صنف الملائكة وإذا لم

---

(١) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

يكن ملكاً فليكن معه ملك ليدلهم على صدق ذلك الرسول البشري.

ولقد تكفل القرآن الكريم بالرد عل هذه الشبهة الواهية وبين أن سنة الله في جميع الأزمنة أن يرسل إلى الناس واحداً منهم يختاره لذلك المنصب ويصطفيه لهذا العمل، وليس من سننه جل وعلا أن يرسل ملائكة للناس مبشرين ومنذرين، وإنما يتم ذلك بواسطة واحد من الناس لهذه المهمة الثقيلة يبين ذلك ما جاء في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وجاء في صدر سورة يونس المكية: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾.

يقول الزمخشري: كانوا يقولون العجب إن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصورهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، وأنه، ﷺ، لم يكن يقصر عن عظمائهم فما يعتبرونه إلا في المال. وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب وكذلك كان أكثر الأنبياء، عليهم السلام، قبله كذلك[1]... .

وقيل: تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق في سورة الأنعام.. هكذا قال البيضاوي.

قلت: وكونهم تعجبوا من أن الله بعث بشراً رسولاً هو المقصود، لأن ذلك كان دأب الأمم التي سبقتهم كما جاء ذلك في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن

---

(١) ج٢، ص ٢٢٤.

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

سيقت هذه القصة لمشركي مكة وغيرهم للعظة و الاعتبار، لأنهم في سبيل إنكار رسالة المصطفى، ﷺ، مكابرة وتعالياً على الحق أنكروا أن يكون الله أنزل على بشر من شيء.

فرد عليهم القرآن بأن هذا النفي غير صحيح بدليل أن الله تعالى أنزل على موسى كتاباً يهدي الناس ويبصرهم ومن بعده أنزل كتاباً على رسوله محمد بن عبد الله مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه، كما صورت ذلك آيتا سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمُ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

لكنهم يسخرون منه ويستهزؤون به ويصفونه بالجنون ويطلبون منه أن يأتيهم بالملائكة إن كان صادقا فيما يقول، ويجهلون أن نزول الملائكة على مثل حالهم إنما يكون بالعذاب الأليم. يقول تعالى ذكره في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

ثم يخبر الله تعالى رسوله، ﷺ، بأن المرسلين الذين قد لاقوا من قومهم تعنتاً وتكذيباً مثل ما يلقى من قومه كفار مكة، وإن هؤلاء لا يطلبون من الآيات ما يعينهم عل التصديق وإنما يفعلون ذلك طلبا للتعجيز، فلو قدر أن فتح لهم باب من السماء وصعدوا منه لظلوا في نكرانهم ولقالوا هذا سحر وإنا به كافرون، وفي تعرية القران لخبايا نفوسهم تسلية لرسول الله، ﷺ، حتى يسير في طريق الدعوة ولا يأبه لهؤلاء المكذبين وأمثالهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ

﴿يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

ويستمر كفار قريش في تكذيبهم لرسول الله، ﷺ، ونكرانهم للحق وذلك بطلبهم خوارق العادات منه فبين لهم الرسول الكريم أنه ليس إلا بشراً رسولاً يوحى إليه من ربه.

جاء في تفسير الجلالين حاشية الجمل: لما تبين اعجاز القرآن وانضمت إليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات وقالوا: لن نؤمن لك . . إلخ.

وروى ابن عباس أن نفراً من قريش اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وطلبوا رسول الله، ﷺ، فجاءهم فقالوا له: يا محمد إن كنت جئت بهذا الحديث ـ يعنون القرآن ـ تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً وإن كنت تريد الشرف سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب نبرئك منه. وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً.

فقال رسول الله، ﷺ: ما بي شيءٍ مما تقولون ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ـ عز وجل ـ حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: يا محمد إنْ كنت صادقاً فيما تقول فَسَلْ لنا ربك الذي بعثك فليسيِّرْ علينا هذا الجبل الذي ضيق علينا. ويبسط لنا بلاداً ويفجر لنا فيها الأنهار كأنهار الشام والعراق ويبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك صدقناك ـ ثم قالوا فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكاً يصدقك. واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة تعنيك على معاشك.

فقال: ما بعثت بهذا.

قالوا: فاسقط كما زعمت علينا كسفاً فإن ربك إن شاء فعل كما تقول.

وقال عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته، ﷺ، عاتكة لا أومن بك أبداً حتى تتخذ لك سلماً إلى السماء ترقى فيه وإنا ننظر إليك حتى تأتيها فتأتينا بنسخة منشورة معك وبنفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول. فانصرف رسول الله، ﷺ

حزيناً لما رأى من تباعدهم عن الهدى فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

إن قضية الرسالة والرسول قد أحاطها الناس بكثير من القدسية كادت أن تخرج بالمرسلين من بشريتهم ولكن القرآن الكريم حارب هذه الأباطيل وأكد بشرية الرسول كاملة فهو لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ولا غيره نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله كما ذكر ذلك الله تبارك وتعالى محكم آياته: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

ويقول تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف].

ومع هذا البيان الصريح لحال الرسول استمروا في إثارة الشبهات حتى أخذوا ينكرون عليه فعل الأمر العادي مثل أكل الطعام والمشي في الأسواق ويرون أنه إذا كان رسولاً فلماذا لا يكون معه ملك أو يلقى إليه كنز. وهذه الأمثال التي ضربوها تدل على عدم ارتفاعها لفهم معنى الرسالة والرسول كما ذكر ذلك في سورة الفرقان المكية: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان].

تلك هي في نظرهم الحالة التي ينبغي أن يكون عليها الرسول ـ ولكن الله جل

ذكره يخبر نبيه، ﷺ، بأن الأمر غير ما يتصوره هؤلاء، وإن هذه المسائل التي يثيرونها ما هي إلا تكذيباً بما أخبر النبي، ﷺ.

يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ [الفرقان].

ثم يخبر الله تعالى بحال المرسلين الذين سبقوه، ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان].

وحينما يرى الرسول، ﷺ، قومه يقفون في وجه الحق مكابرة وعناداً يحزنه ذلك ويأس لقومه الذين يحب لهم كل خير، وهم عنه معرضون، فكان القرآن ينزل عليه بما يسري عن نفسه ويخفف آلامه والآيات القرآنية المكية كثيرة في هذا الشأن، منها قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر].

فهي تسري عن نفسه وتحمل نهياً صريحاً بألا يهلك نفسه ألماً وحسرة على عدم استجابتهم لكلمة الحق، ومثل ذلك ما جاء في سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

ومثل ذلك ما جاء في سورة الكهف المكية حينما طالبوه بالمعجزات الحسية ومنها متاع الحياة الدنيا، فبين القرآن الكريم أن الدنيا إنما هي دار لمعرفة أعمال الناس ثم هي زائلة إلى الفناء قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف].

ونواصل استعراضنا للآيات القرآنية في عهدها المكي وهي تحدثنا عن مواقف المشركين من الرسول وعجبهم أن جاءهم منذر منهم، فبدلاً من اتباعه والإيمان بما جاء به يصفونه بالسحر والكذب ـ ويتعجبون كيف جعل الآلهة المتعددة ـ في

زعمهم ـ إلهاً واحداً ـ ثم يثيرون شبهة أخرى طلما عاشت في نفوسهم المريضة وهي:

كيف ينزل القرآن على محمد بن عبد الله دون كبرائهم وعظمائهم كأنما الرسالة في نظرهم اقتراح يقترح ويرشح لها من يرغبون فيه ؟.

فيخبر الله رسوله بأن هؤلاء لا يتشككون في كونه رسولاً فقط بل هم يشكون في القرآن نفسه، ولماذا يقولون ذلك وهم لا يملكون حق إرسال الرسل ولا اصطفائهم إنما كل ذلك بيد من له ملك السموات والأرض وما بينها كما تقص علينا ذلك آيات سورة ص قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

قال ابن كثير سبب نزولها: قال السدي: إن أناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكلمه فيه ـ يعنون رسول الله ـ فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا بع العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه، فبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم عليّ ابن أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك، قال أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا:

يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه.

قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله، ﷺ، قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وأشرافهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك.

قال ﷺ: يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟.

قال: وإلام تدعوهم ؟.

قال ﷺ: ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم.

فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها.

قال ﷺ: تقولون « لا إله إلا الله ». فنفروا وقالوا سلنا غيرها.

قال ﷺ: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها.

فقاموا من عنده غضاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ [ص]. قال ابن كثير رواه أبو حاتم[1].

قلت: لقد استكثروا الرسالة على الرسول، ﷺ، واقترحوا أن يكون الرسول منهم أو من إحدى القريتين مكة أو الطائف كما ذكرت ذلك آيات سورة الزخرف فعلوا ذلك حسداً من عند أنفسهم فهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] [الزخرف].

يقول ابن كثير: ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل، والله اعلم حيث يجعل رسالاته فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً، وهذا كله وأكثر منه قد توافر لدى رسول الله، ﷺ، فكان الاصطفاء له وكان هو المختار لتبليغ رسالة رب العالمين إلى الناس أجمعين وهكذا يتبين لنا كيف عالجت الآيات القرآنية في عهدها المكي أمر الرسالة والرسول وكيف إن ذلك كان مقصداً من مقاصد السور والآيات المكية في الغالب والأعم.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٢٧ .

(٢) ج٤، ص ١٢٧ .

المبحث الثالث

في تأييد الرسول ﷺ بالمعجزات

بينت في المبحث السابق كيف أن المشركين أنكروا على رسول الله - ﷺ - إرسال رب العالمين له، وحملوا لواء المعارضة ضده وضد الدعوة التي جاء بها. وقد كانت سنة الله أنه ما أرسل من رسول إلا وأنزل معه ما يؤيد أنه مرسل من عند الله وهو ما اصطلح على تسميته « بالمعجزة ».

فما معنى المعجزة ؟ وما الفرق بينها وبين الكرامة ؟ والفرق بينها وبين السحر؟

جاء في لسان العرب: عجز عن الأمر يعجز، وعجز عجزاً، ويقال أعجزت فلاناً إذا ألفيته عاجزاً . . وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ۝٥ ﴾ [سبأ].

قال الزجاج[1]: معناه ظانين أنهم يعجزوننا، قرئت معجزين وتاويلها أنهم يعجزون من اتبع النبي، ﷺ، ويثبطونهم عنه، وعن الإيمان بالآيات، وفي التنزيل: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٢٢ ﴾ [العنكبوت]. قال ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق. وقال عجزني فلان إذا فاتني[2].

ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: وأعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه[3]. أ هـ .

وفي « تاج العروس »: والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، أي مؤخرة، ومعجزة النبي، ﷺ، ما اعجز به الخصم عند التحدي. والهاء للمبالغة والجمع معجزات[4] هذا المعنى اللغوي.

---

(١) هو: إبراهيم بن السري ت ٣١١ .
(٢) لسان العرب، ج٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
(٣) ج٢، ص ١٠٠ .
(٤) تاج العروس، ج٤، ص ٤١ ـ ٤٢ .

أما في اصطلاح المتكلمين: فهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، تنزل من مولانا عز وجل منزلة قوله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني[1]. أ هـ.

ويحدد القرطبي، رَحِمَهُ اللَّهُ، شروط المعجزة بحيث لو اختل منها شرط لا تكون معجزة فيقول:

أولاً: أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى: وإنما وجب حصول هذا الشرط لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجيء الرسل[2] وادعى الرسالة، وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن، ويقوم ويقعد، ولم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له، ولا دالاً على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر وانشقاق القمر وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر.

ثانياً: أن تكون خارقة للعادة، وإنما اشترط ذلك لأنه لو قال مدعي الرسالة آيتي مجيء الليل والنهار، وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه حين دعواه.

ثالثاً: أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل. فيقول آيتي أن يقلب الله سبحانه وتعالى هذا الماء زيتاً، أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل التحدي به.

رابعاً: أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له، لأنه لو قال المدعي للرسالة آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يداه أو الدابة بأن قالت كذب وليس هو بنبي فإن الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة.

خامساً: ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة[3] أ هـ.

---

(١) أم البراهين للإمام السنوسي، ص ١٧٦، ط. دار الفكر.

(٢) ولا يتصور هذا إلا قبل البعثة المحمدية ـ لأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

(٣) تفسير القرطبي، ج١، ص ٦٩ ـ ٧٠، ط. دار الكتاب العربي.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور].

وأما الكرامة فهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد ولي من أوليائه من غير تحد ولا دعوى يدعيها، فهي منحة إلهية يهديها الله لمن يشاء ويمنعها عن من يشاء[1]، كالذي حصل لمريم حينما كان زكريا، عليه السلام، يجد عندها فاكهة الشتاء في زمن الصيف، وفاكهة الصيف في زمن الشتاء. قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران].

قال ابن كثير: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. ثم قال: وفيه دلالة على كرامات الأولياء[2].

فالفرق بين المعجزة والكرامة:

أولاً: إن ما يدل على صدق الأنبياء يسمى معجزة وما ظهر من الولي يسمى كرامة.

ثانياً: إن صاحب المعجزة لا يكتم معجزته بل يظهرها ويتحدى بها خصومه ويقول إن لم تصدقوني فعارضوني بمثلها كالذي حصل من معارضة سحرة فرعون لموسى، عليه السلام، وهزيمتهم أمام معجزة العصا ثم دخولهم في دين الله بعد أن ظهر لهم أن الذي أتى به موسى لم يكن في مقدور البشر الإتيان به، كما ذكر ذلك لنا القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[طه].

وكالذي حصل بين رسول الله، ﷺ، وبين المشركين حينما قالوا إن القرآن مفترى افتراه الرسول ـ في زعمهم ـ فطولبوا إن كان الأمر كما يزعمون أن يأتوا بمثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

---

(١) بينات المعجزة الخالدة، ص٢٨، حسن ضياء الدين عتر، ط. دار النصر، حلب.
(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٣٦٠.

صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس].

وصاحب الكرامة يجتهد في كتمانها ولا يدعي التحدي بها.

وفرق ثالث: « وهو أن صاحب المعجزة مأمون التبديل معصوم عن الكفر والمعصية بعد ظهور المعجزة عليه وصاحب الكرامة لا يؤمن تبدل حاله »[1]، وتخالف المعجزة السحر لأن ذلك صنعه يمكن تعلمها وممارستها - وأن ما يأتي به الساحر والكاهن وأصحاب الحيل والشعوذة كل ذلك ليس خارجاً عن قدرة الإنس والجن.

يقول الزرقاني في « شرح المواهب اللدنية »:« الحق أن السحر ليس من الخوارق لأنه يترتب على أسباب فهو ترتيب سبب على سبب جرت العادة الإلهية بترتيبه عليه كترتيب الإسهال على شرب « السقمونيا » وشفا المريض على شرب الأدوية الطبية فإن كلا منهما غير خارق[2].

والله تعالى يقول: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]. فهو يتعلم.

وإذ قد علمنا معنى المعجزة والفرق بينها وبين الكرامة من ناحية وبينها وبين ما يدعيه السحرة والكهان من ناحية أخرى فإنا نقول بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل معجزة الرسول، ﷺ، الباقية القرآن الكريم وأكرم بها من معجزة. أعجزت الثقلين الإنس والجن فوقفوا أمامها منبهرين: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

وإن كان الله قد أيد رسوله بآيات حسية أظهرها على يديه إلا أنَّ هذه الآيات الحسية لم تبلغ ما بلغته المعجزة القرآنية.

يقول الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن » تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر:

---

(١) أصول الدين، ص١٧٤ - لعبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي.
(٢) ج٥، ص ٨٩، ط. الآمدية.

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا محمد، ﷺ، بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ونقل بعضها متواتراً يقع به العلم وجوداً وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً إلا أنه حكى لأنكروه أو لأنكره بعضهم فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر حل النقل له، وبعضها مما نقل من جهة الآحاد وكان وقوعه بين يدي الآحاد . .[1]

قلت: وإني ذاكرٌ بعضاً من هذه المعجزات الحسية بعد بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، معلوم أن الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية وهي باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لذا كان لابد من بقاء المعجزة شاهداً على ان هذه الرسالة من عند الله.

يقول السيوطي: ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذو البصائر كما قال ﷺ ما من نبي من الانبياء إلا أوتي ما آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[2].

قيل: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها. ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيمة بها التحدي وخرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار وإلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أو أنه سيكون، يدل على صحة دعواه، وقيل المعنى:

إن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزات القرآن تشاهد بالعبرة فيكون من تبعه لأجلها أكثر لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الاول . .[3].

---

(١) ص١٠. إعجاز القرآن .
(٢) فتح الباري، ج٩، ص٣ .
(٣) الإتقان، ج٢، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

أقول إن القرآن الكريم هو الذي دعا به رسول الله، ﷺ، إلى ربه لأنه أمر بأن يدعو به قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾. فبه يكون الإنذار وبه يكون التبليغ عن رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥ ﴾ [ق].

ولقد ذكَّر به ﷺ زعماء قريش حينما بدؤوا في مساومته عن هذه الدعوة الجديدة كالذي دار بينه وبين عتبة بن ربيعة الذي انتدبه مشركو مكة للتفاوض مع الرسول ﷺ فيما جاء به ابن إسحاق:

حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه واعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله، ﷺ، يزيدون ويكثرون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله، ﷺ، فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من ـ السّبطة ـ أي الوسط. في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله، ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن اخي إن كنت إنما تريد مما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك وعلينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً ـ وهو ما يتراءى للإنسان من الجن ـ تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب

التابع أي من تبع الناس ـ من الجن ـ على الرجل حتى يداوي منه او كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله، ﷺ، يستمع منه.

قال: أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟.

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: افعل.

فقال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ [فصلت].

ثم مضى رسول الله ﷺ منها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة انصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . . .

فالرسول ﷺ لم يرد على عتبة إلا بالقرآن تلاه عليه وهو يستمع له ملقياً يديه خلف ظهره من أول سورة فصلت حتى قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝٣٨ ﴾. فبماذا رجع عتبة إلى قومه بعد ما سمع كلام الله في رسول الله ﷺ ؟ وبماذا اجاب قومه ؟ حينما سألوه ماذا وراءك ياأبا الوليد ؟.

قال لهم: ورائي إني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبينما هو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به فما زاد القوم على ان قالوا:

سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[١].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

هذا مثال لما كان يقوم به المشركون من مساومة رسول الله ﷺ . وكان رد الرسول الكريم على مثل هذه المساومات هو ان يدعوهم إلى الله بإسماعهم كتاب الله تعالى معجزته التي أيد الله بها دعوته وحفظه من التغيير والتبديل. فإذا القوم يقفون عاجزين أمام التنزيل الإلهي الذي نزل بلسانهم ومع ذلك لم يستطيعوا مجاراته فما هي وجوه إعجاز القرآن الكريم ؟.

قال القرطبي: وجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة اوجه:

منها: النظم البديع المخالف لكل نظم في لسان العرب وفي غيرها لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس].

وفي صحيح مسلم: أن أنيساً أخاً لأبي ذر قال لأبي ذر لقيت رجلاً بمكة يزعم أن الله أرسله ـ يعني بذلك رسول الله ﷺ ـ قلت فما يقول الناس ؟.
قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر.

وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقرأ الشعر ـ أي أنواعه وطرقه وبحوره وانحاؤه ـ فلم يلتئم على لسان أحد إنه شعر والله أنه لصادق وإنهم لكاذبون[1].

قلت: لقد تقدم قبل قليل قول عتبة بن الوليد بما ذكرناه من خبر قصته وفيه قول اعترافه ـ على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ـ بأنه ما سمع مثل القرآن قط. كان في هذا القول مقراً بإعجاز القرآن ولإضرابه من المتحققين من الفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

والباقلاني، رحمه الله، حينما يتكلم عن نظم القرآن يقول: إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما ينصرف إليه من الوجوه التي ينصرف فيها ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وإنذار ووعد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم وأخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. وتجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع

---

(١) ص٧٣، ج١ .

يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ[1]. إلخ.

ثم يقول: وقد تاملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرئيسة الدنيا[2].

قلت: ذلك أنه كلام رب العالمين فلو كان كلام مخلوف مهما بلغ من البلاغة لوجد فيه التفاوت وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

منها: الجزالة[3] التي لا يمكن أن تكون من مخلوق أبداً. قال القرطبي قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح لأعظم ملوك الدنيا أن يقول: « لمن الملك اليوم » ولا أن يقول: « يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ».

ثم يقول القرطبي قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم والاسلوب والجزالة لازمة لكل سورة بل هي لازمة لكل آية وبمجموع هذه الثلاثة تتميز كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها يقع التحدي والتعجيز كسورة الكوثر.

ومن هذه الوجوه: التصرف في لسان العرب: لا وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف في موضعه.

ومنها أيضاً: الإخبار عن الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله ـ من أمي ما كان يتلوا من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه فأخبر بما كان من قصص الانبياء مع أممها والقرون الخالية في دهرها. وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به. من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر، عليهما السلام، وحال ذي

---

(١) إعجاز القرآن، ص ٣٦ .
(٢) كتاب إعجاز القرآن، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
(٣) الجزالة ضد الركاكة ؟

القرنين، فجاءهم ـ وهو امي من امة ليس لها بذلك علم ـ بما عرفوا من الكتب السابقة صحته فتحققوا صدقه.

يقول الباقلاني: فمن العجيب الممتع على من لم يقف من الأخبار ولم يشتغل بدرس الآثار وقد حكي في القرآن تلك الأمور حكاية من شهدها وحضرها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص].

ومنها: الاخبار عن أمور لم تقع بعد، فوقعت.

فقد أخبر تعالى بغلبة الروم للفرس في بضع سنين.

جاء في سنن الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، رضي الله عنهما: قي قوله تبارك وتعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم].

قال: غُلِبت وغَلَبت: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله، ﷺ، فقال: أما إنهم سيغلبون، فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجل فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك للنبي، ﷺ، قال: ألاجعلته إلى دون. قال: أراه العشر ـ قال أبو سعيد والبضع ما دون العشر، قال ثم ظهرت الروم بعد.

قال فذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[1] [الروم].

---

(١) ج٥، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة ـ ومثال ذلك أيضا ما جاء في سورة القمر في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر].

على ما ذكر ذلك في ص ٦٦ من المبحث الخامس في الباب الأول، كما هناك وفاء للوعد المشروط متى استوفى شرطه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق]. وقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . . . ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال].

وكوعده تعالى لمن آمن وعمل صالحاً باستخلافه في الأرض: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور]. ولقد صدق الله وعده.

قال القرطبي: ومن ذلك ما وعد الله به نبيه ﷺ من انه سيظهر دينه على الأديان بقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف].

يعني بالحجة والبراهين وقد ظهر على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها، وقد حصل هذا، وكان أبو بكر إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجاح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً وبراً وبحراً.

فهذه الأخبار الغيبية التي لا يمكن الوقوف عليها إلا بوحي من الله تبارك وتعالى.

وهذا يدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة صدقه. ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي ـ ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

ومنها: إعجاز القرآن بهدايته لمن سمعه بعقل وأذن واعية، وأن فيه لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالتاريخ يحدث أن عمرو بن الطفيل الدوسي الشاعر اللبيب قدم مكة فأقبل عليه رجال قريش يقولون له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل أمره بنا ـ أي اشتد ـ وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وابيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وبين زوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

يقول عمرو: والله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً[1] فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله، ﷺ، قائم يصلي عند الكعبة قال فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله.

قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال فقلت في نفسي واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته، قال فمكثت حتى انصرف رسول الله، ﷺ، إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ـ فقلت يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ـ للذي قالوا ـ فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني برسغي لئلا أسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعته قولاً حسناً فأعرض عليّ أمرك، قال: فعرض رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وشهدت شهادة الحق[2].

أقول: وهذا الذي كانت تخشاه قريش وهو أن من يستمع إلى القرآن بعقل وتجرد من الاعتراض لابد أن تحصل له الهداية بإذن الله، وهم يعلمون ذلك جيداً... لأنهم يعلمون أن هذا القرآن الكريم له قوة نافذة إلى العقول لولا المرض الذي ران على صدورهم والتكبر الذي أصمهم واعمى أبصارهم فهاهم الزعماء القرشيون أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق حليف بني

---

(١) الكرسف: القطن.

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

زهرة، خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى اتى أبا سفيان في بيته، فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟.

فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، فقال الأخنس وأنا والذي حلفت كذلك، ثم خرج من عنده حتى اتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: ياأبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟.

فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا[1] على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه »[2].

فهم حسداً ومكابرة يرفضون دعوة النبي، ﷺ، فهم الذين كانوا يقولون إذا تلى عليهم القرآن: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ [فصلت].

فقلوبهم لا تفقه وآذانهم لا تسمع وهم الذين كانوا يولون الأدبار نفوراً من سماع القرآن كما قص القرآن علينا ذلك: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ

---

(١) حاذاه أي صار بحذائه.

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣١٦ .

فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء].

من أجل ذلك تواصوا ألا يستمعوا إليه بل إذا سمعوا النبي أن يحدثوا عنده جلبة وضوضاء للتشويش على القارىء والمستمع وحتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت].

التدرج بالتحدي: تدرج القرآن الكريم في تحدي العرب من الكثرة إلى القلة وهم في كل عاجزون.

يقول الشيخ عبد العظيم الزرقاني:« في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن»: ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب أنه طاولهم في المعارضة وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله ثم إلى التحدي بسورة واحدة مثله وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز ومن هزيمة إلى هزيمة ـ وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة ينتقل من فوز إلى فوز ويخرج من نصر إلى نصر »[1]. مشيراً بذلك إلى ما ورد في سورة الطور، ثم سورة هود، ثم سورة البقرة، حيث قال فيما بعد: تصور أنه قال لهم في سورة الطور أول ما تحداهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فلما تقطعوا مدَّ لهم في الحبل وقال في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع وسجل عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم،

---

(١) مناهل العرفان، ج٢، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون»[1]

قول من قال إن الإعجاز في القرآن واقع بالصرفة.

والرد عليه: قال بذلك إبراهيم بن إسحاق النظام[2] المعتزلي قال: إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي . .

قال الزركشي في « البرهان »: وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]. فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يُحتفَلُ بذكره هذا مع أن الاجماع منعقد على إضافة الإعجاز للقرآن، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله[3].

قلت: إن إجماع الأمة على أن القرآن معجز، ولقد تقدمت الأمثلة على مراتب التحدي التي عجز العرب عن مجاراة أي واحدة منها فظهر الحق وبطل ما كانوا يصنعون.

المعجزات الحسية:

لقد قلت في مقدمة هذا البحث إني ذاكر بعضاً من الآيات الحسية التي أيد الله بها رسول الله ﷺ في دعوته، هذه زيادة في إكرام الله تعالى لنبيه خاتم المرسلين فقد أيد من سبقوه من المرسلين بمعجزات حسية انتهت بانتهاء رسالاتهم، أما الرسول ﷺ فقد أيد بالمعجزات القرآنية الباقية ثم أتبع ذلك المعجزات الحسية التي رآها الجَمُّ الغفير، وهي تجابه الحسّ وتظهر عجز الإنسان عن معارضتها

---

(١) مناهل العرفان، ج٢، ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٢) هو من رؤوس المعتزلة توفي في خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين وهو توفي في القرن الثالث الهجري.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص ٩٤ .

فتقيم للفكر برهاناً ملزماً على نبوة صاحبها[1].

قال ابن حجر في « فتح الباري »: وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد فمنه ما وقع للتحدي، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تَحدٍّ.

ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، كما يقطع بوجود جود حاتم وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير . .[2].

ومن هذه المعجزات نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة[3]. فتوضأ فجهش[4] الناسُ نحوه، فقال: ما لكم ؟.

قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا ـ قلت: كم كنتم ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[5].

قلت: فهذه معجزة عظيمة رآها العدد الغفير فهي من المعجزات الحسية قال ابن حجر قال القرطبي: وقضية نبع الماء من بين أصابعه تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي[6] فهذه الأحاديث جاءت من طرق كثيرة تشترك كلها في معنى واحد هو نبع الماء من بين أصابعه فيكون هذا المعنى المشترك متواتراً معنوياً يفيد القطع بالثبوت.

---

(١) بينات المعجزة الخالدة، ص ٢٥ .
(٢) فتح الباري، ج٢، ص ٥٨٢ .
(٣) الركوة إناء الجلد الصغير .
(٤) جهش بفتح الجيم والهاء أي أسرعوا حوله لأخذ الماء.
(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، ص٥٨١ .
(٦) المصدر السابق، ج٦، ص٤٨٥ .

ثم قال القرطبي: لم يُسمع بمثل هذه المعجزة من غير نبينا ﷺ.

ومنها: انشقاق القمر: قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر].

قال الواحدي في «أسباب النزول»: أخبرنا أبو حليم عقيل بن محمد الجرجاني إجازة بلفظه أن أبا الفرج القاضي أخبرهم قال: أخبرنا الحسين بن أبي يحيى بن حماد قال أخبرنا ابن عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله - يعني ابن مسعود - قال: انشق القمر على عهد الرسول،ﷺ، فقالت قريش هذا سحرُ ابن أبي كبشة سحرَكم فاسألوا السّفّار، فسألوهم فقالوا نعم قد رأينا.

فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر].

والحديث رواه البخاري وقال: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله، ﷺ، فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله، ﷺ، اشهدوا[1].

وفي رواية أخرى ذكرها البخاري أيضاً أن ذلك جاء بعد أن طلب المشركون من رسول الله، ﷺ، ذلك، أي أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر.

قال: حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن أهل مكة سألوا رسول الله،ﷺ، أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر[2].

ومنها أيضاً: تكثير الطعام القليل ببركته ﷺ، روى البخاري عن خلاد ابن يحيى حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: أتيت جابراً، رضي الله عنه، فقال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية[3] شديدة، فجاؤوا النبي،ﷺ، فقالوا:

---

(١) ج٨، ص ٦١٧.
(٢) فتح الباري، ج٦، ص ٦٣١.
(٣) القطعة الصلبة الصماء من الأرض.

هذه كدية عرضت في الخندق، فقال أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي، ﷺ، المعول فضرب الكدية فعاد كثيباً أهيل[1] أو أهيم.

فقلت: يارسول الله ائذن لي إلى البيت ـ فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء ؟. فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم بالبرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي، قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي ـ فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو ؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب ـ قال: قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك ؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويفرّق حتى شبعوا وبقي بقية قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة[2].

ومنها: الاستسقاء: وروى مسلم في صحيحه قال: حدثنا يحيى بن يحيى ويحيى بن أيوب وقتيبة بن حجر قال يحيى أخبرنا وقال الآخرون حدَّثنا إسماعيل ابن جعفر عن شريك بن أبي نمير عن أنس بن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء[3] ورسول الله ﷺ يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: « اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا »، قال أنس: ولا والله ما ترى في السماء من سحابة ولا قزعة[4] وما بيننا وبين سلع[5] من

---

(١) كثيباً أهيل: أي صار رملاً يسيل ولا يتماسك .

(٢) فتح الباري، ج٧، ص ٣٩٥ .

(٣) وهي دار كانت لسيدنا عمر سميت دار القضاء لكونها بيعت بعد وفاته في قضاء دينه.

(٤) هي القطعة من السحاب.

(٥) جبل بقرب المدينة.

بيت ولا دار قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس[1] فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً ـ السبت: القطعة من الزمان وأصل السبت القطع ـ قال ثم دخل رجل من ذلك في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل[2] فادع الله يمسكها عنا.

قال فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء ثم قال: « اللهم حوالينا[3] ولا علينا اللهم على الآكام[4] والظراب[5] وبطون الأودية ومنابت الشجر فانقلعت ـ أي فأمسكت ـ السحابةُ الماطرة عن المدينة الطاهرة وخرجنا نمشي في الشمس »[6].

قال الإمام النووي ومراده بهذا أي الراوي: الإخبار عن معجزة رسول الله ﷺ وعظيم كرامته على ربه سبحانه وتعالى بإنزال المطر سبعة أيام متوالية متصلاً بسؤاله من غير تقدم سحاب ولا قزع ولا سبب آخر لا ظاهراً ولا باطناً.

ومن هذه المعجزات الباهرات والآيات المدهشات: تلك المعجزة التي نقل الله سبحانه وتعالى بها سيدنا محمد من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ومن ثم عرج به إلى السموات العليا ليريه من آيات ربه الكبرى، ولقد خلد ذلك القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[7] [الإسراء].

فقد أرشد سبحانه وتعالى في إيجاز حادثة الإسراء مبيناً أنه أسرى بعبده محمداً ﷺ في جزء من الليل، والإسراء: السير بالليل خاصة وإنما قيده بظرفه « ليلاً »

---

(١) هو ما يتقي به السيف ووجه النسبة الاستدارة والكثافة لا القدر.
(٢) وهلاكها هذه المرة من كثرة الأمطار لتعذر الرعي والسلوك.
(٣) في بعض النسخ حوالينا ـ هما صحيحان.
(٤) الآكام دون الجبل وأعلى من الرابية.
(٥) هي الروابي الصغار.
(٦) صحيح مسلم، المجلد الثاني، ص ٦١٣ ـ ٦١٤ .
(٧) تفسير القرطبي، ج١٠، ص ٣٠٥ .

لإفادة قلة زمان الإسراء لما في التنكير من الدلالة على بعض من الأجزاء، وكنى عن محمد ﷺ بـ « عبده » إيذاناً بتمحيصه واستغراقه عليه الصلاة والسلام في عبادة ربه وبلوغه في ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات، كما يوحي بذلك مبدأ الإسراء ومنتهاه.

فالمسجد الحرام والمسجد الأقصى أرض المرسلين ومأوى الربانيين، وأفاد بذلك أن الإسراء كان بالجسد والروح معاً لذلك قال « بعبده » ولم يقل « بروح عبده » وإنما أضاف التنزيه « سبحان » إلى اسم الموصول بعده للإشعار بما في الإسراء من علية ورفعة، فأفاد أنه تعالى في نهاية التنزه عن صفات المخلوقين وعجزهم وأنه ذو القدرة الكاملة والحكمة البالغة[1] وفي الإسراء من تكريم سيد الخلق مالا يخفى، وإرائه من الآيات ما يكون بعضها دليلاً عند القوم على نبوته.

وفي الحديث الذي رواه البخاري: أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتن قريش قمت في الحِجْر فجلّى اللهُ لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[2].

يقول ابن حجر: قوله فجلّى الله لي بيت المقدس، قيل معناه: كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته.

ووقع في رواية عبد الله بن الفضل عن أم سلمة عند مسلم: قال فسألوني عن أشياء لم أثبتها فكربت كرباً لم أُكرب مثله قط فرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به، ويحتمل أن يريد أنه حمل إلى أن وضع بحيث يراه ثم أعيد.

وفي حديث ابن عباس: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعتُه وأنا أنظرُ إليه.

هذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة

---

(١) تفسير أبي السعود، ج٣، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
(٢) فتح الباري، ج٧، ص ١٩٦ .

عين لسليمان وهو يقتضي أنه أزيل من مكانه حتى أحضر إليه وما ذاك في قدرة الله بعزيز . . .

ويقترن بحادثة الإسراء حادثة المعراج وفيها أكرم الله نبيه بعد أن أراه من آياته الكبرى، أكرمه بشرف فريضة الصلاة عليه وعلى أمته كما تقدم ذلك في الباب الأول عند مبحث التشريع في العهد المكي.

ثم إن حادثة الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ساعة من الليل كان فيها من الإعجاز ما أدهش المكيين حتى جعلتهم وهم يستمعون إلى رسول الله ﷺ ما بين مصفق بيديه وبين من وضعها على رأسه تعجباً.

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة مرَّ بي عدو الله أبو جهل فقال: هل كان لنا من شيء ـ قال رسول الله ﷺ: إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين أظهرنا ؟.

قال: نعم.

قال: فإن دعوتُ قومَكَ أتحدثهم بذلك ؟.

قال: نعم.

قال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال فانفضت إليه المجالس حتى جاؤوا إليهما فقال: حَدِّثْ قومك بما حدثتني، فحدثهم قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، قال: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد . . ؟[1].

فنعت لهم كما تقدم.

أكتفي بهذا النزر اليسير من معجزاته الحسية وهي من الكثرة حتى عَدَّها القاضي عياض أكثر من ألف معجزة كما ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

---

(١) ج١، ص ٣٠٥ .

المبحث الرابع

في ذكر قصص الماضين للاعتبار

معنى القصة:

في كلامه عند مادة « قص » يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: القصّ: تَتبُّعُ الأثر، يقال: قصصت أثره، والقص تتبع الأثر قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص]. أي تتبعي أثره، والقصص الأخبار المتتبعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران].

وإنما سميت تلك الأخبار قصصاً لأن القصص بهذا المعنى يدخل في مدلول كلمتي خبر ونبأ، وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي وإن كان فرق بينهما في المجال الذي استعملا فيه، جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام، فاستعمل النبأ والانباء في الأحداث الماضية من زمن بعيد.

قال تعالى في سورة ص: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف].

واستعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد].

والاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشف آثار وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها لتكون العبرة والعظة، ولا يصح أن نطلق لفظ الحكاية على هذا النحو، لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى فقط، أما القصص فإنه ينقلك بنفسك وعقلك ووجدانك إلى هذا الزمان الغابر، لتعيش فيه فتأخذ العبرة والعظة. أ هـ.

ولقد ذكرت في المبحث الثالث من الباب الأول أن الآيات القرآنية في عهدها المكي قد ذكرت كثيراً من قصص الماضين ليكون في ذلك عبرة وموعظة، وليكون فيه تسلية لرسول الله ﷺ، وحافز للمؤمنين على الثبات على الطريق المستقيم الذي سلكوه، وليعلم المؤمنون أن نصر الله قريب وأنه لا يتخلى عن من والاه، بل هو يسمعه ويراه.

ويقول الإمام الشاطبي[1] في « الموافقات »: « وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون، فإنما ذلك تسلية لمحمد ﷺ، وتثبيت لفؤاده لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة فتذكر القصة على الذي يقع له مثله وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال والجميع حق واقع لا إشكال في صحته[2]. أهـ.

فالقصص القرآني إنما يهدف إلى غرض تربوي عال هو العظة والعبرة في الأحداث والأشخاص، ومن أساء منهم ومن أحسن، وموقف كلٍّ أمام دواعي الخير والشر »[3].

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ويقول جل شأنه في سورة هود: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم[4].

إن دعوة الرسل جميعاً في جملتها واحدة وهم هداة البشر إلى الله تعالى، فلا

---

(١) هو: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، ت ٧٩٠ هـ.
(٢) ج٣، ص ٣٥٣ المطبعة السلفية.
(٣) الوحدة الموضوعية، ص٢٩٠.
(٤) الكشاف للزمخشري، ج٢، ص ٢٩٩.

عذر لمن يتخلف عن الإجابة ويتقاعس عن الدعوة بعد أن تبلغه، فالكل مسؤول أمام الله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف].

وقد تكررت القصة، وتذكر في أكثر من موضع، وكل ذلك لحكم سامية ومرامي عالية، وإني ذاكر هنا قصصاً على سبيل المثال: **كقصة نوح**، عليه السلام.

فقد أرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً إلى قومه فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام، مثل: ودّ، وسُواع، ويَغُوث، ويعوق، ونسر. ولكنهم طغوا وبغوا، وكلما كرر لهم الدعاء كانوا يزدادون عتواً ونفوراً، حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم، وتنكروا بثيابهم كي لا يراهم حتى يدعوهم، وأصروا على عنادهم هذا واستكبروا استكباراً، ووصفوه بالضلال المبين، واستهزؤوا به وسخروا منه، لأنه عاب عليهم عبادة هذه الأصنام ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه وناصبوه العداء.

وهكذا حال الفجار يرون الأبرار في ضلال مبين كما قصّ علينا القرآن الكريم فيما دار بين الفجاروالأبرار في سورة التطفيف: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وينفي نوح، عليه السلام، هذه الصفة التي رماها بها قومه قائلاً: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مُبلِّغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركهم ـ أي الرسل ـ أحدٌ من خلق الله في هذه الصفات، وكما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟. قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع اصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: اللهم اشهد اللهم اشهد[1]...

---

(١) ج٢، ص ٢٢٣، والحديث في صحيح مسلم، ج٢، ص ٨٨٩ ـ ٨٩٠.

ويرى نوح، عليه السلام، العجب على وجوه قومه وهو يدعوهم بهذه الكلمات الواضحة الصريحة فيرد على تعجبهم هنا بما أخبرنا به الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف]

أي: لاتعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم نقمة الله ولا تشركوا به. ولكنهم تمادوا في تكذيبهم واستهزائهم فحاق بهم العذاب غرقاً ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف].

فهم عميون عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون إليه فبين تعالى أنه انتقم لأوليائه من اعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين ابقاء لوعده تعالى بنصره رسله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

ولقد تكررت قصة نوح، عليه السلام، في كثير من السور المكية لما فيها من العبرة والموعظة فنوح هو من أولي العزم من الرسل ولقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وصبر على أذاهم حتى أهلك الله المكذبين منهم ونَجَّى نوحاً ومن معه من المؤمنين بفضله وكرمه. قال تعالى في سورة القمر ـ مذكراً نبيه محمداً ﷺ وقومه بما حاق بقوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر].

وقد ذكرت هذه القصة في كثير من السور المكية وهي تحمل من الدروس والعبر ما يحمل المؤمنين على التمسك بعقيدتهم كما تنذر المخالفين عذاب الله الأليم[1].

---

(١) ذكرت قصة نوح في سورة الأعراف من الآية ٥٩ ـ ٦٤، وفي سورة هود من الآية ٢٥ ـ ٤٨، وفي سورة المؤمنين من الآية ٢٣ ـ ٣٠، وفي سورة الشعراء من الآية ١١١ ـ ١٢٠ وفي سورة القمر من الآية ٩ ـ ١٦، ثم في سورة نوح بأكملها، لقد ذكرت في هذه السور =

قصة عاد قوم هود:

كانت عاد قوم هود يسكنون الأحقاف شمال حضرموت وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله، فأرسل الله هوداً، عليه السلام، ليأمرهم بعبادة الله وحده وينذرهم بأس الله مذكراً إياهم بنعم الله عليهم وبما حل بقوم نوح حينما خالفوا أمر الله، لكنهم لم يستجيبوا لنداء الرسول بل وصفوه بالسفاهة والضلال المبين.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه « قصص الأنبياء »: فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التي أقامها هود على صدقه، بأنه مرسلٌ من ربه واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة في إنذارهم أَحلَّ الله تعالى بهم نقمته في الدنيا بأن أمسك عنهم المطر حتى جهدوا، كان كلما نزل بهم الجهد ذكَّرهم هود بدعوته وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه فكان ذلك يزيدهم عتواً إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كانها أعجاز نخل منقعر[1] وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ونجّى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ[2].

أقول: لقد قص علينا القرآن الكريم قصة عاد قوم هود في كثير من المواضع.

ففي سورة الأعراف: نجد قوله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف].

= مفصلة بألفاظ مختلفة حسب حاجة البيان وإن كان هناك ذكر لاسم نوح وقومه في ثنايا سور مكية أخرى.

(١) منقعر: أي من قولك قعرت الشجرة قلعتها من أصلها فانقعرت انظر مختار الصحاح، ط . دار عمار : الأردن .

(٢) ص ٥٣، ط. دار إحياء التراث العربي.

لكنهم تمادوا في كفرهم وعنادهم وتمسكوا بما وجدوا عليه الآباء والأجداد، وكقوم هود استعجلوا العذاب الذي وعدهم به هود عليه السلام وأنذرهم به قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف].

وكانت رحمة الله بهود ومن معه من المؤمنين، وحاق العذاب بعاد فكانوا عظة لغيرهم وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]. وهذه القصة قد ذكرت كثيراً في ثنايا السور المكية[1]. حتى يكون في ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ودافعاً للمؤمنين للتمسك بإيمانهم لما رأوا إنجاء الله للمؤمنين وإهلاكه للكافرين.

قصة ثمود قوم صالح:

ونورد هنا قصة ثمود قوم صالح لِمَا فيها من العبر، وقد ذكرت هذه القصة كثيراً في ثنايا الآيات المكية.

فقد أرسل الله سبحانه وتعالى صالحاً إلى ثمود وكانوا يشركون مع الله غيره في عبادتهم، فوعظهم صالح وذكَّرهم بنعم الله عليهم وأنه تعالى جعلهم خلفاء من بعد عاد وبَوَّأ لهم في الأرض فاتخذوا من سهولها قصوراً، ونحتوا من جبالها بيوتاً، كما أمدهم الله تعالى بالمال الوفير فجعل لهم جنات وعيوناً وزرعاً ونخلاً، لكن ذلك أطغاهم فتمادوا في فسادهم وعصيانهم، ووصفوا صالحاً بأنه ساحر، وإن كان صادقاً فيما يقول فليأتهم بهذا العذاب الذي يتوعدهم به، فأخرج الله تعالى لهم الناقة وأمرهم صالح بألا يَمسُّوها بسوء، ولكنهم بدلاً من إطاعة الأوامر

---

(١) ذكرت هذه القصة في سورة المؤمنين من الآية ٣١ ـ ٤٢ . وفي سورة الشعراء من الآية ١٢٣ ـ ١٤٠، وفي سورة فصلت من الآية ١٥ ـ ١٦، وفي سورة الاحقاف من الآية ٢١ ـ ٤٤، وفي سورة الحاقة من الآية ٧ ـ ٨ ، وفي سورة الفجر من الآية ٦ ـ ٨. وفي غير ذلك من السور.

اعتدوا على الناقة وعقروها فكان ذلك بداية لنهايتهم وجعلهم عبرة لغيرهم من الأمم وآية بينة للمؤمنين قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء].

فبماذا أجابت ثمود صالحاً، عليه السلام ؟.

حكى الله تعالى قولهم: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء]. لكنهم لم يستجيبوا فوقعوا في المحظور: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الشعراء].

أخذهم الله بالعذاب ونجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون بفضله ورحمته كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت].

ولقد ذكرت هذه القصة في سور كثيرة من السور المكية كما هو مبين بالهامش[1].

كذلك قص القرآن الكريم على رسوله ﷺ قصص غير الأنبياء، وبعض هذه القصص قد جاء نتيجة أسئلة تحدى بها المشركون الرسول ﷺ بعد أن سألوا أهل الكتاب عن أمره فوجهوهم إلى سؤاله عن أصحاب الكهف وذي القرنين كما بينت ذلك في المبحث الخامس من الباب الأول، بما يغني عن إعادته هنا.

---

(١) ذكرت هذه القصة في: سورة الأعراف من الأية ٧٣ ـ ٧٩. وفي سورة الحجر من الآية ٨٠ ـ ٨٤. وفي سورة النمل من آية ٤٥ ـ ٥٣، ثم في سورة فصلت من آية ١٧ ـ ١٨، وفي سورة الذاريات من الآية ٤٣ ـ ٤٥، وفي سورة النجم من الآية ٥٠ ـ ٥١، وفي سورة القمر من الآية ٢٣ ـ ٣٢. وفي سورة الحاقة من الآية ٤ـ ٥ وفي سورة الشمس من الآية ١١ ـ ١٥.

ومن هذه القصص أيضاً قصة أصحاب القرية . . .

وهي قرية أنطاكية وقومها وثنيون يعبدون الأصنام فأرسل عيسى، عليه السلام، لها رسولين ليبلغا أهلها كلمة التوحيد. وجاء الرسولان والتقيا برجل صالح هو حبيب النجار على ما ذكروا، وعرضا عليه الإسلام فطلب آية تؤيد دعوتهما، وكان له ابن مريض فشفاه الله بفضل دعائهما، ثم توجه الرسولان إلى أهل القرية وعرضا عليهم الإسلام ولكن القوم أنكروا عليهما وآذوهما وتطيروا بهما وحبسوهما، فأرسل عيسى، عليه السلام، رسولاً ثالثاً يعزز موقف الرجلين لكن القوم قالوا لهما ما كان يقوله المتكبرون على رسل الله: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يس]. فقال لهم الرسل: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾ [يس]. شأن المرسلين، وهو : ما عليهم إلا البلاغ المبين، فلما هدد القوم المرسلين بالرجم، جاء الرجل المسلم حبيب النجار الذي كان قد آمن بالرسل من قبل ودعا قومه إلى اتباع المرسلين، لأنهم لا يسألونكم على دعوتكم للهداية أجراً، فاتهموه بأنه على دينهم فلما اجاب بالإيجاب رجموه فغفر الله له وأدخله الجنة، فتمنى لو أن قومه علموا بما ناله من الكرامة والرفعة عند الله حتى يسيروا على نهج المرسلين الذي سار عليه.

فلما كان عناد القوم وطغيانهم ووقوفهم في طريق الحق موجباً لهلاكهم أرسل الله تعالى إليهم جبريل فصاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون، ثم كان التعقيب على هذه القصة.

ألم يروا - أي أهل مكة - ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يس]. أفلا يعتبروا بذلك فيؤمنوا[1].

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج٣، ص٥٦٨ وما بعدها.

أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يس].

كذلك قص القرآن الكريم عليهم **قصة أصحاب الأخدود**: وهو الشق في الأرض يُحفَرُ مستطيلاً، وجمعه أخاديد.

وأصحاب الأخدود جماعة من الكفار كانوا في القديم، وقد غاظهم إيمان المؤمنين المعاصرين لهم وشَقَّ عليهم ذلك فانتقموا منهم انتقاماً شديداً، وذلك بأن شقوا لهم أخدوداً في الأرض وأضرموا فيه النيران ذات الوقود الشديد اللهب الشديد والدخان، وألقوا فيها كل ما يضرمها ويؤججها، ثم جاءوا بالمؤمنين وألقوا بهم في النار وجلسوا يشاهدون منظر المؤمنين وهم يلقون في النار فرحين بذلك.

وما ذنب هؤلاء المؤمنين الذي أزعج هؤلاء الكفرة حتى جازوهم هذا الجزاء إلا أنْ آمنوا بالله العزيز الحميد.

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله العزيز الحميد الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وإن كفر به بعض خلقه.

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ [البروج].

جاء في «التفسير الواضح» تعقيباً على قصة أصحاب الأخدود: وهذه أمثلة أخرى تؤكد أن العاقبة للصابرين وأن الله مع المؤمنين فاحذروا يا أهل مكة تلك

العاقبة واحذروا أيها الطغاة الظالمون نتيجة أعمالكم[1].

إن القصص القرآني كما أخبر عنه الله جل وعلا، عبرة لأولي الألباب وهو صدق لأنه أخبر به الله تبارك وتعالى. وهو القائل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣ ﴾ [يوسف].

والله ولي التوفيق.

---

(١) تفسير الواضح، ج٣، ص٣٧ .

الباب الرابع

في

المقصد الثالث من مقاصد السور المكية وهو: إثبات البعث والجزاء

المبحث الأول

في تعريف البعث وإثباته وبيان أنه عقيدة سائر الأنبياء

البعث في اللغة: هو إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثه وابتعثه أي: أثاره، وبعثت الناقة إذا أثرتها، قال ابن حجر:

فبعثتها تقص المقاصر بعد ما كربت حياة النار للمتنور[1].

ويقال: بعثه وابتعثه بمعنى أرسله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]. أي أرسلنا، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة]. وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]. « وبعثه من منامه ـ أيقظه »[2].

ويطلق البعث ويراد به إحياء الموتى من قبورهم وأماكن وجودهم ليساقوا إلى موقف الحساب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج].

وهذا المعنى للبعث هو الذي عنينا بمعالجته في هذا المبحث. وهو ممكن عقلاً وثابت شرعاً.

أما إمكانه عقلاً: فإن الإنسان يرى الأرض الميتة بسبب المحل والجدب والقحط حيث تنعدم فيها الحياة تماماً، ثم ينزل إليها الغيث أو تسقى بالماء فتعود إليها الحياة كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥، ج١، ص٢٦٦، ط. الحلبي.

(٢) مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط. دار عمار / الأردن .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج].

يقول الدكتور محمد صادق عرجون، رَحِمَهُ اللَّهُ: « فَهُمودُ الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة الموت للأحياء، واهتزازها بتحرك مواردها وتفاعلها وربوها بانتفاخ قشرتها إذا أنزل الله عليها الماء بمنزلة الحياة تسري في الموت فيشرق وينبلج بالبهجة وجمال المنظر.

ولما استوى الاستدلال بشقيه التطوري في خلق الإنسان وخلق النبات بما لايدع مجالاً للتوقف في قبول النتيجة ـ جاءت تلك النتيجة في صراحة ظاهرة كأمر حتمي لا يسع العقول السليمة من العناد إنكاره بعد استقامة المقدمات ووضوحها. . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. والإشارة التي بدأت بهذه النتيجة الحتمية تعود إلى ما تقدم من أطوار الخلق في الحيوان والجماد والنبات[1]. أ هـ.

إن الشيء الذي لم يكن ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من يراه أول مرة ثم أعدمه وأفناه، فالذي بنى داراً ثم هدمها لا يستحيل عليه وفي حقه إعادة بنائها كما كانت وخيراً مما كانت، وهذا النوع من الاستدلال العقلي ورد في سورة الروم في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه، ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

ومن الأدلة العقلية على إمكانية البعث:

اختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد فإن العقل السليم لا ينكر وجود حياة أخرى يجازى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة: قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس].

يقول الزمخشري في «الكشاف»: فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء. وأن المحسن لابد له من ثواب والمسيء لابد له من عقاب[1]. أهـ

أما الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على إثبات البعث فهي كثيرة منها ما جاء في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة]. وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم].

وفي سورة ق تجد قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وفي سورة القمر يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي سورة المعارج يقول الحق جل ذكره مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً

---

(١) ج٣، ص٢٧٩ .

أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

كما أخبر النبي ﷺ بأن البعث بعد الموت حق واقع، فقد روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد[1].

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: خطب النبي - ﷺ - فقال: « إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين »[2].

وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا نبي الله أيحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟.

قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. قال قتادة: بلى وعزة ربنا[3].

ثم إن البعث يوم القيامة إنما يكون بالروح والجسد معاً كما أخبر بذلك الحق تبارك وتعالى وبين ذلك النبي المصطفى ﷺ، فقد قال سبحانه وتعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة].

يقول الزمخشري في «الكشاف»: والمعنى: نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطاً بالتراب وبعدما ساقتها الرياح وطيرتها في أبعاد الأرض قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول إلى أن نُسوّي بنانه أي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم من خلقه[4]. أ هـ.

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «الإنسان في القرآن»: «إن فيما ورد في القرآن الكريم عن البعث من القبور التي احتوت أجسام الموتى تحولت

---

(١) ج٦، كتاب التفسير، ص٢٢، ط. دار التراث العربي، بيروت .
(٢) ج٦، ص١٢٢ .
(٣) فتح الباري، ج٨، ص ٤٩٢.
(٤) ج٤، ص١٩٠ .

فيها هذه الأجساد إلى تراب إنما يبعث منها الإنسان أياً كان المصير الذي صار إليه سواء كان اختلط بتراب الأرض او بنباتها أو حيوانها »[1].

ومن هذه الآيات ما جاء في سورة النور: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور].

وفي سورة يس نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس].

يقول سيد قطب في كتابه « مشاهد القيامة في القرآن » وهو يتكلم عن هذه الآيات: فنحن أمام مشهد جديد عجيب: هؤلاء هم الكافرون يختم على أفواههم فلا تملك ألسنتهم النطق بينما أيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما كانوا يكسبون. إنه لمشهد يثير الخيال ويحرك الوجدان حيث تنقلب الأحوال وحيث يواجه الإنسان هذا الحادث الفذ. يخذل بعضه بعضاً، وتشهد جارحة على جارحة وتتفكك الشخصية الإنسانية إلىأجزاء وآحاد[2]. أ هـ.

وفي مكان آخر يحتج هؤلاء على حواسهم لم شهدت عليهم فتجيبهم بأن الذي أنطقها هو الله الذي أنطق كل شيء.

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت]

فهذه الآيات القرآنية تثبت أن المبعوث من قبره هو الإنسان بجوارحه

---

(١) ص ٢٢٢، ط. دار الفكر العربي، بيروت .

(٢) ص ٩٤.

وحواسه: لأنها الشاهد عليه يوم القيامة ولا فرار من شهادتها: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة].

يقول الزمخشري في « الكشاف » في تفسيرها:

البصيرة: حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [النمل].. أي أو عين بصيرة، والمعنى ينبأ بأعماله .. ففيه ما يجزىء عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت، لأن جوارحه تنطق بذلك[1].

أما الأدلة الشرعية التي تفيد وقوع البعث في الدنيا للعبرة والاتعاظ فكثيرة منها: ما جاء في سورة البقرة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ[2] فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قال الرازي في « التفسير الكبير »: روي عن ابن عباس وسائر المفسرين أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً ـ له ـ لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق، ثم شكا ذلك لموسى، عليه السلام، فاجتهد موسى في تعرف القاتل فلما لم يظهر، قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأل الله فأوحى إليه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ [البقرة]. فتعجبوا من ذلك، ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام «عنها» حالاً بعد حال، واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين، ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل ففعلوا، فصار المقتول حياً وسمى قاتله، وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً[3]. أ هـ[4].

يقول ابن كثير: ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من امر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد.

---

(١) ج٤، ص١٩١ .

(٢) أي تدافعهم واختلافهم .

(٣) القود هو: بفتحتين القصاص .

(٤) ج١، ص١١٤، ط. دار الكتب العلمية.

وهناك قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

والاستفهام هنا للتقرير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر.. والمعنى: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، يقول الشوكاني: وحاصله أن الرؤية هنا بمعنى الإدراك فتضمنت معنى التنبيه ويجوز أن تكون متضمنة معنى الانتهاء: ألم ينته عِلْمُكَ إليهم.

أو معنى الوصول: ألم يصل علمك إليهم.

ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية أي: ألم تنظر إلى الذين خرجوا.

جعل الله قصة هؤلاء لما كانت بمكانٍ من الشيوع والشهرة بحمل كل واحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد أو المبصرة لكل مبصر . . .

والخطاب جار مجرى المثل في مقام التعجب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوي في إدراكه الشاهد والغائب[1].

والآية دالة على وقوع البعث بعد الموت قال الرازي في «التفسير الكبير»:

الآية دالة على أنه تعالى أحياهم بعد أن ماتوا فوجب القطع به، وذلك لأنه في نفسه جائز والصادق أخبر بوقوعه، أما الإمكان فلأن تركيب الأجزاء على الشكل المخصوص ممكن وإلا لما وجد أولاً، واحتمال تلك الأجزاء للحياة ممكن، وإلا لما وجدت أولاً، ومتى ثبت هذا فقد ثبت الإمكان، وأما الصادق فقد أخبر عنه في هذه الآية، ومتى أخبر الصادق عن وقوع ما ثبت في العقل إمكان وقوعه وجب القطع به[2]. أ هـ.

وقص علينا القرآن الكريم قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها

---

(١) ج١، ص ٢٦١، ط. دار الفكر للتوزيع والنشر.
(٢) ج١، ص ١٦٤ .

وهي أيضاً قد وردت في سورة البقرة: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

وقد اختلف المفسرون في هذا المار، فقال بعضهم إنه عزير وقال آخرون إنه الخضر وقيل غير ذلك، والذي يهمنا هو المعنى الذي ترمي إليه القصة بغض النظر عن من هو المار لأن معرفة اسمه لا تضيف جديداً للمقصود، فهو قد مر ووجد هذه القرية خاوية على عروشها، فوقف متفكراً فيما آل إليه أمرها بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه؛ فأماته الله مائة عام ثم بعثه.

يقول الأستاذ سيد قطب: لم يقل له كيف؟ وإنما أراه في عالم الغيب كيف؟.

فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي ولا حتى بالمنطق الوجداني، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان، وإنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة التي يمتلىء بها الحسّ ويطمئن بها القلب دون الكلام[1]. أهـ.

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]. وذلك أنه على ما قاله ابن كثير: إنه مات أول النهار ثم بعثه الله آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم. قال تعالى: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[2] ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]. وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجد كل ذلك لم يتغير منه شيء. لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص، وانظر إلى حمارك كيف يحييه الله عز وجل، ولنجعلك آية للناس أي دليلاً على المعاد، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً، فلما تبين ذلك له قال: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) المجلد الأول، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٢) أي لم يتغير وهذا خلاف العادة المعروفة في مثل هذه الحالة .

فهو القادر على كل شيء ، الفعال لما يريد. أ هـ[1].

ومن الأدلة الشرعية التي تفيد وقوع البعث في الدنيا قصة الخليل إبراهيم، عليه السلام، وهي خير شاهد على إمكانية إعادة الحياة للجسد بعد مفارقة الروح له، وذلك أنه عليه السلام سأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ؟ حتى يطمئن قلبه فأمره الله سبحانه وتعالى أن يأخذ أربعة من الطير وأن يذبحهن ويجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم يدعوهن، ولقد فعل ذلك فجاءته الطيور سعياً، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

يقول ابن كثير: ذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً . . . قال ابن كثير: قال ابن عباس: أخذ رؤوسهن بيده ثم أمره عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ـ والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها ببعض حتى قام كل طائر على صورته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقدرته ولهذا قال: ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ أي عزيزٌ لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه[2] شيء وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره[3]. أ. هـ.

ويظهر من النص القرآني أن سؤال إبراهيم عليه السلام لم يكن سؤال شك وإنما هو لأجل الاطمئنان ـ ذلك أنه سأل عن كيفية الإحياء، ولم يسأل هل يحيي الله الموتى؟.

يقول الآلوسي في «تفسير روح المعاني»: و يعجبني ما حرره بعض المحققين في هذا المقام وبسطه في الذي قيل عن الخليل ـ عليه السلام ـ من الكلام وهو: أن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج١، ص ٣١٤ .
(٢) في الأصل «من» ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٣) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٣١٥.

السؤال لم يكن عن شك في أمر ديني والعياذ بالله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علماً بها، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فالخليل عليه السلام ـ طلبَ عِلْمَ ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف؟ وموضوع السؤال عن الحال، ونظير هذا، أن يقول القائل كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته، ولو كان سائلاً عن ثبوت ذلك لقال أيحكم زيد في الناس ؟.

ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فينسب إلى إبراهيم ـ وحاشاه ـ شكاً من هذه الآية قطع النبي، ﷺ، دابر هذا الوهم بقوله، على سبيل التواضع: « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أي: ونحن لم نشك فلأن لايشك إبراهيم أحرى، وقيل إن الكلام مع أفعل ـ أحق ـ جاء هنا لنفي المعنى عن الحبيب والخليل عليهما السلام أي لا شك عندنا جميعاً »[1].

كما قص علينا القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف وهم الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم فحفظهم الله في الكهف ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ثم بعثهم من رقدتهم أحياء بعد كل هذه المدة وجعل ابتعاثهم دليلاً على إمكانية البعث.

فقال تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

وهذ السنين فسرت لنا في آية لاحقة: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف].

بعد هذه المدة بعثهم الله أحياء وجعل قيامهم من رقدتهم آية على أن الساعة آتية لا ريب فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف].

وهذه القصة مبسوطة في سورة الكهف[2]. وفي تفسير هذه الآيات يقول ابن

---

(١) ج٣، ص ٢٦ ـ ٢٧ ، ط. دار الفكر بيروت.

(٢) الآيات من ٩ ـ إلى ٢٦.

كثير: ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، وقال: قال عكرمة كان طائفة منهم قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ـ فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك[1]. أ. هـ.

وقد جعل الحق تبارك وتعالى إحياء الموتى في الدنيا قبل الآخرة معجزة لرسول الله عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال جل ذكره في سورة المائدة: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾﴾.

قال الزمخشري في « الكشاف » عند قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ ﴿١١٠﴾﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم، قيل: أخرج سام من نوح ورجلين وامرأة وجارية[2].

وفي« التفسير الكبير» للرازي: قال: قال الكلبي: كان عيسى ـ عليه السلام ـ يحيي الأموات « بيا حيُّ ياقيوم » وأحيا عاذر وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً، ومر على ابنٍ ميتٍ لعجوزٍ فدعا له فنزل عن سريره حياً ورجع إلى أهله وبقي وولد له[3]. أ. هـ.

والبعث بعد الموت هو عقيدة جميع رسل الله وقد بلَّغوا ذلك لأممهم وحذروهم عاقبة ذلك اليوم و ذلك من خلال تتبعنا لآيات القرآن الكريم.

فمن ذلك ماجاء في قصة آدم أبو البشر ـ عليه السلام ـ بعد أن أمره الله هو وزوجته

---

(١) ج٣، ص٧٧.
(٢) المجلد الأول، ص ٦٣٥.
(٣) ج٧، ص ٦١.

بالهبوط إلى الأرض بعد أن أكلا من الشجرة يخبره الله عز وجل أن هذه الأرض فيها مستقرهم ومتاعهم إلى حين وفيها محياهم ومماتهم ثم منها يخرجون، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف].

يقول ابن كثير: يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي فيه كلاً بعمله[1].

وأنذر به نوح قومه على ما حكاه عنه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف]. أي عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم به مشركون وهذا لايكون إلا بعد البعث.

وفي سورة نوح عليه السلام: يأمر قومه بالاستغفار وشُكْرِ الله على ما أنعم عليهم من نعمه الكثيرة التي لا تحصى من مال وولد ويلفت نظرهم إلى آيات الله تعالى وأنهم سيموتون ثم يبعثون، فعليهم الإيمان بالله القادر.

قال تعالى على لسان نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح].

يعني يوم القيامة. . . .

وعن نبي الله موسى يخبرنا القرآن الكريم أن موسى دعا الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف].

كما أنذر باليوم الآخر قومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ

---

(١) ج٢، ص٢٠٧.

مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود].

ويستعيذ نبي الله موسى من كل كافر متكبر لا يؤمن بيوم الحساب: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر].

وها هو ذا مؤمن آل فرعون يحذر قومه من كفرهم بالله ويخاف عليهم من عقاب الله تبارك وتعالى الذي مسَّ الأمم من قبلهم كما ينذرهم بيوم التناد: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر].

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم].

ومن دعائه أيضاً ما ذكره الحق عز وجلّ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

ومع هذا الذي أوردناه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إمكانية البعث وأنه عقيدة رسل الله جميعاً فقد تَشكَّكَ فيه قومٌ وأنكروه، ولقد تتبعهم القرآن الكريم ورد كل أقاويلهم هذه وشكوكهم ـ على ما سنبنيه في المبحث التالي.

المبحث الثاني

في مناقشة منكري البعث والرد عليهم

تقدم في المبحث السابق بيان حقيقة البعث وإمكانية وقوعه عقلاً وثبوته شرعاً كما سقنا أمثلة لوقوعه فعلاً في الدنيا للعبرة وأنه واقع في الدار الآخرة كما بينت ذلك الآياتُ القرآنية والأحاديث النبوية. وأنه من الأصول العقائدية التي أجمعت عليها الديانات السماوية، ومع هذا البيان فقد أنكر فريق من البشر أن تكون لهم حياة بعد الموت، ولقد أكثر القرآن الكريم وخاصة في عهده المكي من الرد على هؤلاء المعاندين الذين يستبعدون ذلك ويقسمون جهدَ أيمانهم أنه لا يبعث الله من يموت فيكذبهم الله تعالى ويبطل قولهم ويخبر أن إعادة الموتى وعدٌ من الله لحكمةٍ بالغة وهي أن يجازى كلٌّ بعمله.

قال الله تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل]. فقد كذبوا الرسل في إخبارهم وحلفوا على نقيض ما أخبروا به، فقال تعالى مكذباً لهم ورداً عليهم ﴿بَلَىٰ﴾. سيكون ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لابد منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر ـ ثم يذكر سبحانه وتعالى كلمته في المعاد وقيام الناس لرب العالمين يوم التناد: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل]. في إيمانهم وإقسامهم لا يبعث الله من يموت.

وفي مكان آخر حكى الله زعمهم أنهم لن يبعثوا، فأخبر الله نبيه بأنهم سيبعثون وينبئون بما عملوا وإن استبعدوا ذلك فإنه عند الله يسير، قال الله تعالى في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

وهكذا كقولهم الذي حكاه الله في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

يقول الزمخشري في « الكشاف »: قولهم ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾. نَفْيٌ للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم ـ متى[1] هذا الوعد ـ أُجيب ما بعد النفي ببلى على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل[2]. ولهذا فهم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعّاً وتدفعهم الزبانية دفعاً وتقول لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور].

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وأمرُ المعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۝٢٨﴾ [لقمان].

ولشدة كفرهم وعنادهم استبعدوا أن يعودوا خلقاً جديداً بعد أن يكونوا عظاماً بالية، فقال سبحانه وتعالى لرسوله قُلْ لهم: كونوا أكثر من ذلك حجارة أو حديداً أو أكبر من ذلك مما يكبر في صدورهم فسيعيدكم الله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[3] وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء].

يقول جار الله الزمخشري في « الكشاف » عند تفسيره لهذه الآيات لما قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا ۝٤٩﴾، قيل لهم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾. فرد قوله﴿كونوا﴾ على قولهم ﴿كنا﴾، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً فإنه قادر على إحيائكم، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً

---

(١) وردت هذه العبارة في سورة يونس، آية رقم ٤٨، الأنبياء ٣٨، في النحل آية رقم ٧١، وفي سبأ آية رقم ٢٩، وفي يس ٤٨، وفي سورة الملك آية رقم ٢٥ .

(٢) ج٣، ص ٢٧٢ .

(٣) أي يحركونها تعجباً من قوله.

مع أن طباعها القساوةُ والصلابة لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة »[1].
فهم في نكرانهم للمعاد يتبعون ما وجدوا عليه الآباء والأجداد. ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنين].

وكقولهم: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ[2] ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ[3] ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات].

فهم ينكرون أن يعودوا إلى الحياة بعد الموت، وبعد أن صاروا عظاماً بالية يقول الزمخشري: فإن قلتَ بِمَ تَعلَّقَ قولُه: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [النازعات]. قلتُ: بمحذوفٍ معناه لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة، يعني لا تحسبوا تلك الكَرَّة صعبة على الله عز وجل فإنها سهلة هينة في قدرته ما هي إلا صيحة واحدة فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها[4]. أ هـ.

ونستمر مع القرآن الكريم في عهده المكي وهو يعرض حججهم الواهية ويرد عليها، كما حكت قولهم هذا آيات سورة يس وردت عليه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

قال الشوكاني في «فتح القدير»: «وهي ـ الجملة ـ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجب من جهله، فإن مشاهدة خَلْقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة بالاعتراف على قدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما كانت[5]. أ هـ.

وفي سبب نزول هذه الآيات قال ابن كثير: قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم

---

(١) ج٢، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .
(٢) الحافرة: الحالة الأولى، يعنون الحياة بعد الموت .
(٣) الساهرة: هي الأرض البيضاء المستوية.
(٤) ج٤، ص ٢١٣ .
(٥) ج٤، ص ٤٨٣ .

رميم وهو يَفتُّه ويَذْرُوه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟.

قال: « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم محشرك إلى النار »[1]. ونزلت هذه الثلاثة آيات من آخر سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إلى آخر الآيات.

وقال بعضهم: القائل هذه الكلمات هو العاص بن وائل السهمي ؟ وسواء أكان القائل هو أبي بن خلف أو العاص بن وائل فإن الكفار قد قالوا هذه القولة الشنيعة وأل في الإنسان للجنس تعم كل مُنْكِرٍ للبعث.

ويقول ابن كثير: أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المرسلات]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان].

فكيف ينسى هذا ويستبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه وأن الله خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال عز وجل: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]. أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت[2] أ.هـ.

وفي سبيل إنكارهم للمعاد يتعللون بطلب إحياء مَنْ تقدموهم من الآباء والأجداد إن كان ما يقوله الرسول والمؤمنون في شأن البعث حقاً.

قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان].

يقول ابن كثير: يقول تعالى رداً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ويحتجون

---

(١) ج٣، ص ٥٨١، الواحدي في أسباب النزول، ص٢٤٦ .

(٢) ج٣، ص٥٨٢ .

بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإنْ كان البعث حقاً ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الدخان]. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حلَّ بأشياعهم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تُبَّع والذين من قبلهم فقد أهلكهم الله بسبب جرمهم وعنادهم[1]. أ هـ.

فالرسل ليست مهمتهم خلق المعجزات وإحياء الأموات وإنما هم مُبلِّغون عن الله تبارك وتعالى، ولا يتمنون على الله الأماني، فاستبعاد هؤلاء للمعاد ونكرانهم له لم يقم على سند ولا دليل وإنما هي دعاوى باطلة قلدوا فيها الآباء والأجداد وسخروا واستهزؤوا برسل الله وسيعلمون عاقبة أمرهم بعد حين وساعتها سيندمون ولات ساعة مندم، ويسلي الله سبحانه وتعالى رسوله حينما يكشف له أمر هؤلاء الساخرين المستهزئين ويبين له مصيرهم الذي سيؤولون إليه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الصافات].

وفي سورة السجدة يخبرنا القرآن الكريم بنكرانهم البعث بعد الموت واستبعادهم له قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

قال الزمخشري: قيل: القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أُسندَ إليهم جميعاً[2].

يقول سيد قطب: إنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقاً جديداً بعد موتهم ودفنهم وتحول أجسامهم إلى رفات يغيب في الأرض ويختلط بذراتها ويضل فيها، فما من هذا من غرابة أمام النشأة الأولى ؟ لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين من هذه

---

(١) انظر ابن كثير، ج٤، ص ١٤٣ .
(٢) ج٣، ص ٢٤٣، الكشاف.

الأرض التي سيقولون إن رفاتهم سيضل فيها ويختلط فيها، فالنشأة الآخرة شبيهة بالنشأة الأولى ليس فيها غريب ولا جديد، ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

ومن ثم يقولون ما يقولون فهذا الكفر بلقاء الله هو يلقي على أنفسهم ظل الشك والاعتراض على الأمر الواضح، لذلك يرد على اعتراضهم بتقرير وفاتهم ورجعتهم .. ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة]. هكذا في صورة الخبر اليقين[1]. أ هـ.

وفي موقف آخر من مواقف إنكارهم ليوم البعث يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هؤلاء الكافرين كانوا يستبعدون حياتهم بعد الموت وحياة آبائهم وليس الأمر كما قالوا بل إن الله تعالى جامع الأولين والآخرين في يوم المعاد.

قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ[2] ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

يقول ابن كثير: يعني أنهم يقولون ذلك مُكَذِّبين مستبعدين لوقوعه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة]. أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني أدم سَيُجمعون إلى عرصات يوم القيامة لا يُغادر منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود]. ولهذا قال ههنا: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة] مؤقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص. أ هـ.

وفي هذا اليوم سيكون الجزاء العادل الذي لا يظلم فيه أحد، كما هو مبين في المبحث الثالث.

---

(١) المجلد السادس من ظلال القرآن الكريم، ص ٥١٦ .

(٢) الحنث العظيم هوالشرك بالله.

المبحث الثالث

في ثبوت الجزاء على الأعمال

لقد تقدم في المبحث السابق بيان أن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الخلق سيخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر، مهطعين[1] إلى الداعي، وقد عَنَتِ الوجوه للحي القيوم وخشعت الاصوات فلا تسمع إلا همساً[2].

لقد انتهى العمل في الدنيا وجاء يوم الجزاء على هذه الأعمال وهو ما سنعالجه في هذا المبحث، لأنه مما أفاضت فيه الآيات المكية بصورة لا توجد في غيرها من الآيات المدنية، إن الجزاء على الأعمال وما سبقه من نشر الناس من قبورهم وعرضهم على ربهم ووضع الموازين القسط للفصل بين الناس، والخصومات التي تدور بين الخلق أمام الحق جل وعلا، ووصف الجنة التي أعدها الله للمتقين وما تبع ذلك من رضوان الله عليهم، والنار التي أعدت للكافرين وما تبع ذلك من سخط الله عليهم. كل هذا مما عرضت له الآيات المكية وأبرزته بصورة كاملة، فعندما يجيء الأمر الإلهي، بالنفخة الثانية في الصور[3] وهي النفخة التي يخرج بعدها الناس من قبورهم فزعين قد استولى عليهم الرعب وساقتهم الملائكة إلى المحشر حين يجمع الله البشر من كل أقطار الأرض ومع كل نفس سائق وشهيد.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة ق: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ق].

ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر].

وفي سورة القمر يقول تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

---

(١) أي مسرعين .

(٢) الهمس الصوت الخفي .

(٣) الصور: هو القرن الذي ينفخ فيه .

خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر].

وفي سورة المعارج يخاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم فسيعلمون عاقبة ذلك ويذوقون وباله وسيكون ذلك حيث يقوم الناس من قبورهم ملبين دعوة الداع كأنهم إلى نصب أي علم وغاية ينتهون. وقد علت وجوههم الذلة وكساهم الهوان وذلك في مقابلة تكبرهم في دار الدنيا عن الاستجابة لنداء الحق تبارك وتعالى، وهذا اليوم يوم عظيم فيه من الأهوال ما يجعل السماء والأرض ـ هما أكبر من خلق الناس ـ تتبدل وتتغير: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ [إبراهيم].

إنه يوم يتغير فيه نظام الكون، فالنجوم انتثرت والبحار تفجرت والقبور تبعثرت: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار].

وهو يومٌ تُدَكُّ فيه الأرضُ والجبال والسماء مع عظمهم فهي واهية ضعيفة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحاقة].

إنه يوم القارعة الذي يكون فيه الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال ـ مع قوتها وضخامتها كالعهن المنفوش: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (١) ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة].

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾

---

(١) العهن: الصوف.

وَبُسَّتِ[1] ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة].

إنه يوم الطامة الكبرى الذي يتذكر فيه الإنسان ما قَدَّمت يداه من خير وشر: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ ﴾ [النازعات].

وهو يوم الصاخة الذي يفر فيه المرء من اخيه وأمه وأبيه. ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ ﴾ [عبس].

وهو يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج].

ومع هذا الهول الشديد فإن الإنسان يجيء وليس معه قريب ولا صديق حميم يقول جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤ ﴾ [الأنعام].

وقوله جَلَّ وعلا في سورة الكهف: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨ ﴾ [الكهف].

ثم إذا كان النشر من القبور والحشر إلى أرض المحشر كان وضع الميزان وعرض الأعمال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ [الأنبياء].

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ ﴾ [المؤمنون].

---

(١) بُسّت الجبال بساً: أي فتتت فتاً. والهباء: الذي يطير من النار إذا أضرمت، والمنبث: الذي ذرته الرياح.

ولقد ورد ذكر وزن الأعمال في عدة آيات مكية منها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١) ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

وفي سورة القارعة: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القارعة].

إنه يوم وضع الموازين لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال(٢)، فكل عمل عمله الإنسان في دار الدنيا يجده مسجلاً مكتوباً: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ (٣) فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

والمقصود: إن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليلهُ وكثيره، ويُكتب عليه ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً ويُجْمَعُ له عمله كله في كتاب يُعْطَاهُ يومَ القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً، يجده مفتوحاً يقرأه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة]. ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء].

يقول ابن كثير: «إنك تعلم أنك لم تُظْلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ـ وينسى أدنى شيء مما كان منه وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي ـ وإنما ذكر العنق في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى

---

(١) الكلوح: تكشر في عبوس.

(٢) انظر البيضاوي، ج٤، ص٤١.

(٣) طائره: عمله وهو من قولك طار له سهم إذا خرج يعني ألزمناه ما طار من عمله.

عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء]. لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومَنْ ألزم بشيء فيه فلا محيد عنه[1].

ولهذا نجد المجرمين مشفقين من ذلك اليوم مما يلاقون فيه من عنت ومشقة نتيجة لما عملته أيديهم: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف].

كما تصور لنا الآيات القرآنية في عهدها المكي ما بين الخلق من خصومات في هذا اليوم العصيب، حيث يتخلى المتبوع عن التابع فلا يغني عنه من الله شيئاً، ولا يدفع عنه ضراً، وكيف يفعل له ذلك وهو لايستطيع نصر نفسه. قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ[2] ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول ابن كثير: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر].

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟[3] فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ

---

(١) ج٣، ص٢٧ .

(٢) مالنا من محيص: أي ليس لنا منجى ولا مهرب .

(٣) ادّاركوا فيها يعني: تلاحقوا واجتمعوا في النار .

﴿ ٱسْتُضْعِفُوا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وفي سورة ص يقول جل ذكره: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه « مشاهد القيامة في القرآن »: فها نحن أولاء أمام جماعة من أهل جهنم وقد كانت في الدنيا متوادةً متحابة، فهي اليوم متناكرة متنابذة، كان بعضهم يملي لبعض في الضلال، وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ويهزأ من دعواهم في النعيم، هاهم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج، هذا هو الفوج الأول ينقل إليه نبأ اقتحام الفوج الثاني: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ﴾ فماذا يكون الجواب؟ ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾. فهل يسكت المشتومون؟ كلا، فها هم أولاء يردون: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾. وإذا دعوة جامعة: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾. ثم ماذا؟ ثم هاهم أولاء يفتقدون المؤمنين الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا ويظنون بهم شراً ويسخرون من أمانيهم في النعيم فلا يرونهم مقتحمين معهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ص].

كلا لم تزغ أيها القوم فلو ألقيتم بأبصاركم إلى جنات النعيم لوجدتموهم هنالك متكئين: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾. وإننا لنشهد الآن هذا الخصام كما لو كان حاضراً للعيان، وإن كل نفس آدمية لَتحس في حناياها وَقْعَ هذا المشهد وتتقيه، وتحاذر لو ينفع الحذر، أن تقع فيه[1]. أ هـ.

وفي سورة غافر يخبر الحق تبارك وتعالى: أن الضعفاء يطلبون من السادة الكبراء أن يتحملوا عنهم ما يلاقونه من العذاب؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم الباطل فاتبعوهم لكن هؤلاء المتكبرين لا يملكون حتى نصر أنفسهم فهم جميعاً التابع

---

(١) مشاهد القيامة، ص٨٤ ـ ٨٥، ط. دار الشروق.

والمتبوع في النار: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر]. يطلبون من خزنة النار أن يدعوا لهم الله كي يخفف عنهم يوماً من العذاب، ولكن لا إجابة لهذا الطلب بل مزيداً من العذاب. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر].

وتجد ذكر تبرؤ المتبوعين من التابعين عند رؤيتهم العذاب الأليم في سورة مدنية كما هو موجود في سورة البقرة والأحزاب، ففي سورة البقرة يقول الحق جل وعلا: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة].

وفي سورة الأحزاب يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

كما تناولت السور المكية وصف حال النار وأهلها بطريقة بارزة تقشعر منها الجلود، وعلى نهج القرآن التربوي في الترغيب والترهيب تكلمت الآيات المكية عن الجنة ونعيم أهلها، ففي سورة الأعراف نجد حواراً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار بين ما يلاقيه كل من الفريقين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

فهؤلاء لا يقبل لهم عمل، ولا يرفع لهم دعاء؛ نتيجة تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها، ولا يدخلون الجنة إلا إذا دخل الجمل في فتحة الإبرة وهذا مستحيل، فمأواهم النار منها فراشهم وغطاؤهم، أما المؤمنون فحالهم تسر القلوب لأن جزاءهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يعني حتى يدخل الجمل زوج الناقة في فتحة الإبرة وقد علّق دخولهم الجنة بمستحيل.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: قال السدي في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾. إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصول ساقها عينان فيشربوا من إحداها فينزع الله ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً[1].

وبعد أن يستقر أصحاب الجنة في الجنة وأصحاب النار في النار ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأعراف].

يقول ابن كثير في تفسير قوله: ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا . . . ﴾. أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق: أي قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، قالوا نعم.

وفي سورة الصافات يقص علينا القرآن قصة مجلس من مجالس المؤمنين في الجنة وهم يتسامرون، ويقص عليهم أحد المنعمين قصةَ قرينٍ له كان في الدنيا فنجاه الله بفضله من شر ذلك القرين، قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات].

فما هي شجرة الزقوم ؟. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٢١٩ .

عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات].

يقول الزمخشري: روي أنه لما نزل: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ؟ قال ابن الزبعرى[1]: إن أهل اليمن يدعون أكل الثريد والتمر التزقم: فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال تزقموا فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد فنزل: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الدخان] .

أما المتقون، جعلنا الله منهم، فهم في مقام أمين لا يحزنون إذا حزن الناس ولا يفزعون إذا فزع الناس: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ[2] وَإِسْتَبْرَقٍ[3] مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الدخان].

إنه لا تكاد تخلو سورة من السور المكية من الكلام عن اليوم الآخر وما فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم .وإضافة إلى الآيات التي أوردناها في هذا المعنى فإننا نجد الحديث عن اليوم الآخر مبثوثاً في ثنايا السور المكية الآتية:

سورة الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، وسبأ وفاطر، ويس، والصافات، وص، والزمر، وغافر، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والتغابن، والملك، والحاقة، والمعارج، ونوح، والمزمل، والقيامة، والدهر، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والتكوير، والتطفيف، والانشقاق، والانفطار، والبروج، والطارق، والأعلى، والغاشية، والفجر، والبلد

---

(١) هو: عبد الله بن الزبعرى.

(٢) ما رقَّ من الديباج.

(٣) والاستبرق ما غلظ منه .

والليل، والشمس، وضحاها، والضحى، والقلم، والزلزلة، والعاديات، والقارعة والتكاثر، والهمزة.

ولقد ذكرت في مقدمة هذا المبحث بأننا نجد في السور المدنية كلاماً حول اليوم الآخر وما فيه من الأهوال ولكنه ليس بالصورة التي ذكر بها في السور المكية.

يقول الأستاذ محمد قطب: في كتابه « دراسات قرآنية » وهو يتحدث عن الإيمان بالله واليوم الآخر: إن ذلك في الغالب من خاصية السور المكية فيما يأتي ذلك اليوم الآخر والإيمان به في السور المدنية يكون ذلك ملحقاً به الإيمان بالله مباشرة. أما في السور المكية فقد كان الحديث مستفيضاً عن اليوم الآخر وعن البعث والمساءلة والثواب والعقاب ووصف الجنة ووصف النار ومعظم مشاهد القيامة هي في الحقيقة في السور المكية[1]. أ هـ.

وبهذا نكون وصلنا بهذه الدراسة إلى نهايتها بقدر المستطاع والله المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) ص٦٣ .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبيه محمد خاتم الانبياء والمرسلين المنزل عليه من ربه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

فالقرآن الكريم هو كتاب الهداية والحق الذي هو أحقُّ أن يتبع؛ لأنه نزل بالحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء]. لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

ولقد أنزل هذا الكتاب المبارك مُنجَّماً على رسول الله ﷺ خلال بضع وعشرين عاماً، عاشها عليه الصلاة والسلام على فترتين: الأولى بمكة المكرمة قبل الهجرة النبوية، والثانية بعد الهجرة بالمدينة المنورة.

ولقد عني هذا البحث بدراسة السور والآيات التي نزلت في الفترة المكية وأبرز أهم خصائصها ومقاصدها ـ وخرج البحث بالنتائج الآتية:

أولا: أن الحاجة ملحة لدراسة المكي والمدني وذلك لدراسة مراحل الدعوة الإسلامية ومعرفة الناسخ والمنسوخ والمتقدم والمتأخر.

ثانيا: لابد من الرجوع في ذلك لما ورد عن الصحابة والتابعين .

ثالثا: إن السور قد تسمى مكية أو مدنية بحسب الغالب فيها من الآيات[1].

رابعا: من أجل أن نعرف أن هذه الآية مدنية أو مكية لابد من الرجوع

---

(١) انظر المبحث الثالث من الباب الأول.

للرواية الصحيحة ولا يكفي الاعتماد في ذلك على ما هو مبين في المصاحف المتداولة، ولا في الكتب التي منها كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم[1].

خامساً: أن أصول التشريع قد نزلت بمكة المكرمة في الغالب أما التفصيلات الفرعية فقد نزلت بالمدينة المنورة بعد الهجرة النبوية[2].

سادساً: إن قضية توحيد الله تعالى ونفي الشرك وإظهار آيات الله الكونية؛ كل ذلك قد عنيت به الآيات والسور المكية في الغالب والأعم[3].

سابعاً: قصدت السور والآيات المكية إلى إبراز قضية الرسالة والرسول، ومناقشة المشركين بطريقة واضحة بينة كما بينت ذلك في الباب الثالث.

ثامنا: اهتمت السور والآيات المكية بمعالجة قضية البعث والجزاء وإبراز حال المؤمنين في الدار الآخرة وما أعد لهم من نعيم مقيم، وكشف حال الكافرين وما أعد لهم من العذاب الأليم[4].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات].

---

(١) المبحث الخامس من الباب الأول.
(٢) المبحث السادس من الباب الأول.
(٣) انظر الباب الثاني.
(٤) انظر الباب الرابع.

فهرس المراجع

القـرآن الكريـم

أـ كتب التفسير:

١ـ التفسير الكبير للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي. المتوفي سنة ٦٠٦هـ .

٢ـ الجامع لإحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي المتوفى سنة ٦٧١هـ .

٣ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ ،ط. دار الباز للتشر والتوزيع.

٤ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين بن الحسن بن محمد ابن الحسين للنيسابوري. المتوفى سنة ٧٢٨هـ ،ط. الأميرية.

٥ـ تفسير الطبري ـ جامع البيان في تفسير القرآن. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المتوفى سنة ١٣٠هـ ، ط. المطبعة الاميرية

٦ـ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. المتوفى سنة ٧٧٤هـ، ط. عيسى البابي الحلبي.

٧ـ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل .لأبي سعيد عبد الله بن عمر الشيزاري البيضاوي. المتوفى سنة ٦٨٥هـ وقيل ٦٩١هـ ، ط. مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت.

٨ـ تفسير الجلالين. لجلال الدين المحلي. المتوفى سنة ٨٦٤ ، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ .

٩ـ تفسير فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني. المتوفى سنة ١٢٥٠هـ ،ط. محفوظ العلي.

١٠ـ تفسير المراغي. محمد مصطفى المراغي المتوفى سنة ١٩٤٥م.

١١ـ تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لأبي السعود محمد

بن العماد الحنفي. المتوفى سنة ٩٨٢هـ .
١٢ـ تفسير: لباب التأويل في معاني التنزيل. للخازن علاء الدين محمد بن علي بن محمد الشيحي. المتوفى سنة ٧٤١هـ .
١٣ـ معالم التنزيل لأبي محمد الحسين البغوي. المتوفى سنة ١٥٠هـ.
١٤ـ تفسير: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. لأبي الثناء شهاب الدين الألوسي. المتوفى سنة ١٢٧٠هـ .
١٥ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور. لجلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. المتوفى سنة ٩١١هـ .
١٦ـ تفسير المنار: للشيخ محمد عبده. المتوفى سنة ١٣٢٣هـ .
١٧ـ التسهيل لعلوم التنزيل للإمام الحافظ محمد بن أحمد الكلبي. المتوفى سنة ٧٤١هـ ،ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة.
١٨ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي. المتوفى سنة ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م .
١٩ـ في ظلال القرآن ـ للأستاذ الشهيد سيد قطب. المتوفى سنة ١٩٦٦م، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠ـ التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازي. المتوفى سنة ١٩٧٢م.
٢١ـ أحكام القرآن للجصاص أحمد بن علي الرازي الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ .

ب ـ كتب الحديث

٢٢ـ صحيح البخاري للإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٣ـ صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١هـ ، ط. عيسى البابي الحلبي.
٢٤ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ .
٢٥ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ ،ط. المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
٢٦ـ سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنة ٢٧٩هـ ، ط.

مصطفى البابي الحلبي.
٢٧ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير مجد الدين أبو السعادات البارك ابن محمد الجزري المتوفى سنة ٦٠٦هـ ،ط. المكتبة الإسلامية.
٢٨ـ شرح المواهب اللدنية للزرقاني أبي عبد الله محمد بن عبد الباقي المصري ١١٢٢هـ ،المطبعة الأميرية.
٢٩ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ ، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ج ـ كتب علوم القرآن

٣٠ـ البرهان في علوم القرآن. لبدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، ط. عيسى البابي الحلبي.
٣١ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، ط. المكتبة الثقافية، بيروت.
٣٢ـ مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني المتوفى سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ،ط. مكتبة الكليات الأزهرية.
٣٣ـ المدخل لفهم علوم القرآن للدكتور محمد محمد أبو شهبة.
٣٤ـ مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح.
٣٥ـ أسباب النزول للواحدي. أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المتوفى سنة ٤٢٧هـ .
٣٦ـ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي. المتوفى سنة ٩١١هـ .
٣٧ـ الوحدة الموضوعية للدكتور محمود حجازي. المتوفى سنة ١٩٧٢م .
٣٨ـ أسرار ترتيب القرآن للسيوطي. المتوفى سنة ٩١١هـ .
٣٩ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي. المتوفى سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .
٤٠ـ إعجاز القرآن للباقلاني. أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ .

د ـ كتب اللغة والأدب

٤١ـ تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي. محمد بن مرتضى. المتوفى سنة ١٢٠٥هـ

٤٢ـ لسان العرب لابن منظور. جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم. المتوفى سنة ٧١١هـ.

٤٣ـ المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. إبراهيم مصطفى وآخرون.

٤٤ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس. أحمد بن فارس. المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون

٤٥ـ أساس البلاغة للزمخشري. أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨هـ .

٤٦ـ مختار الصحاح لأبي بكر الرازي. محمد بن زكريا. المتوفى سنة ٣١٣هـ ـ ٩٢٥م . ط. دار عمار/ الأردن.

٤٧ـ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني. أبي القاسم الحسين بن محمد. المتوفى سنة ٥٠٢هـ .

٤٨ـ ديوان زهير بن أبي سلمى. المتوفى سنة ٦٠٩م .

هـ ـ كتب السيرة

٤٩ـ السيرة النبوية لابن هشام. أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣هـ أو ٢١٨هـ .

٥٠ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد محمد أبو شهبة.

٥١ـ قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار. المتوفى سنة ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م.

و ـ كتب إسلامية عامة

٥٢ـ دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز. المتوفى سنة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م .

٥٣ـ كتاب المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة. المتوفى سنة ١٣٩٤هـ ـ

١٩٧٤م .
٥٤ـ كتاب سورة الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضبف.
٥٥ـ دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب.
٥٦ـ كتاب: الله جل جلاله لسعيد حوّى.
٥٧ـ منهج القرآن في التربية، محمد شديد.
٥٨ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسين الندوي.
٥٩ـ أم البراهين للإمام السنوسي.
٦٠ـ بينات المعجزة الخالدة للدكتور حسن ضياء الدين عتر.
٦١ـ أصول الدين لعبد القاهر بن طاهر التميمي. المتوفى سنة ٤٢٩هـ ـ ١٠٣٧م.
٦٢ـ الإنسان في القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب.
٦٣ـ تاريخ القرآن لأبي عبد الله بن الميرزا الزنجاني.
٦٤ـ مشاهد القيامة في القرآن للأستاذ سيد قطب. المتوفى سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٦م .
٦٥ـ دعوة الرسل للشيخ محمد أحمد العدوي.
٦٦ـ الموافقات في أصول الشريعة: للإمام الشاطبي. أبي اسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي. المتوفى سنة ٧٩٠هـ .

فهرست الأحاديث والآثار

الحديث	رقم الصفحة
ارفعوا طعامكم	٢٣
الحمد لله رب العالمين أم الكتاب	٤٩
أول ما بدىء به رسول الله	٥٢
كان رسول الله ﷺ سحر	٧٧
يا أم المؤمنين انبئيني	١٣١
فضل صلاة الصبح	١٤٤
فقال ما لكم	٢٢٠
انشق القمر	٢٢١
فقال أنا نازل	٢٢٢
اللهم أغثنا	٢٢٢
اللهم حوالينا	٢٢٣
كذبتني قريش	٢٢٥
أيها الناس إنكم	٢٢٨
أليس الذي أمشاه	٢٤٢
نعم يميتك الله تعالى	٢٥٥

فهرست موضوعات الكتاب

الموضوع **رقم الصفحة**

المقدمة ٥
منهج البحث ٩
خطة البحث ١١

الباب الأول

المبحث الاول: المراد بالمكي والمدني ١٥

الاصطلاح الأول ١٦
الاصطلاح الثاني ١٧
الاصطلاح الثالث ١٨
الموازنة بين الآراء الثلاثة ١٩

المبحث الثاني في ضوابط المكي والمدني ٢٣

الطريق الأول ٢٣
الطريق الثاني ٢٤
« كلا » ٢٥
السجدة ٢٧
حروف التهجي ٣٠
يا أيها الناس ٣٢
يا بني آدم ٣٤

المبحث الثالث في خصائص السور والآيات المكية ٣٥

الخصائص الأسلوبية ٣٥
الخصائص الموضوعية ٣٧
قصص الأنبياء ٣٨
الحديث عن القرآن الكريم ٤١

المبحث الرابع: معنى السورة ٤٤

بيان السور المتفق على مكيتها والمختلف فيها ٤٧
بيان السور التي ورد فيها الخلاف وزمان نزولها ٤٩
سورة الفاتحة ٤٩
سورة الرعد ٥٥
سورة الحج ٦٠
سورة الرحمن ٦٣
سورة الصف ٦٥
سورة التغابن ٧٠
سورة التطفيف ٧٣
سورة البينة ٧٤
سورة الزلزلة ٧٥
سو رة الإخلاص ٧٥
المعوذتين ٧٦
ترتيب الآيات والسور وأسماؤها ٧٨

المبحث الخامس: بيان الآيات المدنية في السور المكية
والآيات المكية في السور المدنية ٨٥

السور المكية ٨٦

سورة الفاتحة ٨٦
سورة الأنعام ٨٦

سورة الأعراف ٩٢
سورة هود ٩٣
سورة يوسف ٩٣
سورة إبراهيم ٩٤
سورة الحجر ٩٤
سورة النحل ٩٦
سورة الإسراء ٩٨
سورة الكهف ١٠١
سورة مريم ١٠٥
سورة طه ١٠٥
سورة الحج ١٠٦
سورة الفرقان ١٠٨
سورة الشعراء ١٠٩
سورة القصص ١١٠
سورة العنكبوت ١١١
سورة الروم ١١٢
سورة لقمان ١١٢
سورة السجدة ١١٣
سورة سبأ ١١٤
سورة يس ١١٥
سورة الزمر ١١٦
سورة غافر ١١٦
سورة الشورى ١١٨
سورة الزخرف ١٢٠
سورة الجاثية ١٢٠
سورة الأحقاف ١٢١
سورة ق ١٢٤
سورة النجم ١٢٥

سورة القمر ١٢٦
سورة الواقعة ١٢٧
سورة القلم ١٢٨
سورة المزمل ١٢٩
سورة المرسلات ١٣٢
سورة الماعون ١٣٢
الآيات المكية في السور المدنية ١٣٣
سورة الأنفال ١٣٣
سورة التوبة ١٣٦
الحكمة من وجود آية مدنية في سورة مكية
أو آية مكية في سورة مدنية ١٣٧

المبحث السادس: التشريع في العهد المكي ١٣٨

النهي عن أكل الميتة ١٤٢
فريضة الصلاة ١٤٣
الزكاة ١٤٦
الأمر بمكارم الأخلاق ١٤٨
حق الوالدين ١٥١

الباب الثاني

المبحث الأول: الدعوة إلى وحدانية الله ١٥٥

قل أغير الله أتخذ ولياً ١٥٦
إن يدعون من دونه إلا إناثاً ١٥٨
دعوة الرسل إلى وحدانية الله ١٦٩

المبحث الثاني في مناقشة المشركين ١٧٢

قول اليهود: عزير ابن الله ١٧٢
قول النصارى: المسيح ابن الله ١٧٣

وقالوا اتخذ الله ولداً ١٧٣
قول المشركين: الملائكة بنات الله ١٧٤

المبحث الثالث: الآيات الكونية ١٧٨

الباب الثالث

المبحث الأول: حالة المجتمع قبيل البعثة المحمدية ١٨٩

تعدد الأنكحة ١٩٠
شرب الخمر ١٩١
التعامل بالربا ١٩١
نظرتهم إلى المرأة ١٩٢
قتل الأولاد ١٩٣
البحث عن مخرج ١٩٤

المبحث الثاني: إنكار المشركين أن يكون الرسول من البشر ٩٦

مساومة المشركين للرسول ﷺ ٩٨
مطالبة المشركين بخوارق العادات ٢٢٠
رد القرآن الكريم على شبهاتهم ٢٠٢
اجتماعهم بأبي طالب ٢٠٣

المبحث الثالث: تأييد الرسول ﷺ بالمعجزات ٢٠٥

معنى المعجزة ٢٠٥
شروطها ٢٠٦
الفرق بين المعجزة والكرامة ٢٠٧
الفرق بينها وبين السحر ٢٠٨
القرآن الكريم معجزة الرسالة الخالدة ١١٠
التدرج في التحدي ٢١٧
المعجزات الحسية ٢١٩

نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ٢٢٠
انشقاق القمر ٢٢١
تكثير الطعام ٢٢١
الاستسقاء ٢٢٢
الإسراء ٢٢٣
المعراج ٢٢٤

المبحث الرابع في ذكر قصص الماضين ٢٢٧

معنى القصة ٢٢٧
قصة نوح عليه السلام ٢٢٩
قصة عاد قوم هود عليه السلام ٢٣٠
قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ٢٣١
قصة أصحاب القرية ٢٣٢
قصة أصحاب الأخدود ٢٣٣

الباب الرابع

المبحث الأول: تعريف البعث ٢٣٩

إمكانيته عقلاً ٢٤٠
إثباته شرعاً ٢٤١
بيان أنه عقيدة جميع رسل الله ٢٤٥

المبحث الثاني في مناقشة منكري البعث والرد عليهم ٢٥٢

المبحث الثالث: الجزاء على الأعمال ٢٥٨

النفخة الأولى وقيام الناس من قبورهم ٢٥٨
ونضع الموازين القسط ٢٦٠
الخصومات بين التابعين والمتبوعين ٢٦٢
وصف حال النار وعذابها والجنة ونعيمها ٢٦٤

خاتمة البحث ٢٦٩
فهرست المراجع ٢٧١
فهرست الآحاديث والآثار ٢٧٧
فهارس الموضوعات ٢٧٩